

الفصل الثاني

أصدقاء وأحداث

- ١ - غياب شعر الحنين .
- ٢ - في ظل حكام دمشق .
- ٣ - في كنف عماد الدين زنكي .
- ٤ - في الأرض المحتلة .
- ٥ - في دولة نور الدين محمود .

أولاً ، غياب شعر الحنين :

في هذا الفصل ، سنحاول أن نتتبع شعر ابن القيسراني تتبعاً تاريخياً متسلسلاً مع الزمن ، مع الانحصار في دائرة العلائق مع الصليبيين دون غيرها لنستبين أثر هذه العلائق في شعر الشاعر ، في حالي الحرب والسلام على السواء .

على أنه يجدر بنا قبل أن نورد الأصداء الأولى للحروب الصليبية في شعر ابن القيسراني ، أن ننبّه إلى ظاهرة تسرّعي النظر : تلك هي خلوهذا الشعر من أيّ حنين إلى البلد الذي تفتحت فيه عيناه على الحياة - عكا - أو البلد الذي كانت فيه مراتب صباه - قيسارية . واقد كنا نتوقع من شاعر أجلي عن موطنه بالقوة ، نتيجة عدوان خارجي قاسٍ ، قُتِل فيه الناس دونما تمييز ، أن تبقى صورة وطنه المغتصب عالقة في ذهنه ، وأن يعبر في شعره عن حنين إلى هذا الوطن ، وتفجّع على فقدّه . وإذاً يتنبّه الدارس لهذا الأمر ، لا يجد في تحليله إلا مجموعة من الافتراضات ...

فقد يكون عامل السنّ هو السبب . فمعروف أن الشاعر قد غادر عكا إلى قيسارية طفلاً ، ثم أكره على الخروج من قيسارية فتي يافعاً في حدود السادسة عشرة من عمره ، إذا كان قد غادر المدينة بُعِيدَ سقوطها في أيدي الصليبيين عام ٤٩٤ هـ . فهل تكون هذه السنّ المبكرة هي التي حالت

دون ادراك ابن القيسراني لمعنى الأرض والوطن ؟ ذلك مجرد احتمال . إذ إن روابط الإنسان بوطنه تكون قد بدأت في التكوّن في سن الصبا ...

وقد يكون الشاعر في أيام صباه ، لم يكن قد بدأ في نظم الشعر ، أو أن ما نظمته في تلك السن المبكرة ، لم يَعدْ أن يكون محاولة فجّة لنظم الشعر ، فآثر هو ألا يذيع نتاجها وينشره ، وبالتالي لم يصلنا منه شيء . غير أن ذلك ينبغي ألاّ يحول دون نظم ابن القيسراني شعراً في الحنين إلى موطنه الذي نشأ فيه ، بعد أن اشتدّت ساعده ونضج شعره في سنوات لاحقة لهجرته ، فذكريات الصبا من أعزّ ذكريات الإنسان ، ولقد كانت ، وما تزال . حافزاً على الانتاج الفني ...

وقد يكون . ابن القيسراني نظم شعراً في موطنه المسلوب ، ولكن لم يصل هذا الشعر إلينا ، لا سيما أنه قد ثبت لنا بصورة قاطعة ، أن ما بين أيدينا من شعر ابن القيسراني ، لا يمثل مجموع ما نظمته من شعر ...

وثمة تعليل قد يأخذ به من يتقبلون افتراض « كارل بروكلمان » بأن الفرسان النصاريّ الذين وفدوا في الحملات الصليبية ، قد اعتُبروا مجرد منافسين مزعجين للسلاجقة الأتراك ينازعونهم على سوريّة^(١) . ذلك أن هذا الافتراض ، قد يوحى بأن استيلاء الصليبيين على عكا وقيسارية ، لم يزد عن كونه مجرد انتقال بالمدينتين من حكم إلى آخر ، في زمن كثر فيه انتقال المدن من يد إلى يد ، ومن دويلة إلى دويلة ...

بيد أن من الصعب تقبّل افتراض كهذا ، لا سيما إذا تذكرنا أن الاستيلاء على قيسارية وعكا تمّ بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . مع ما يوحيه هذا الاستيلاء على المدينة المقدّسة من طابع ديني للغزوة الصليبية .

١ - انظر : Carl Brockelmann : History of the Islamic Peoples , London , 1952 , p. 22 .

وفضلاً عن ذلك ، فقد رافق استيلاء الصليبيين على المدينة المقدسة والمدينتين المذكورتين لإراقة دماء غزيرة ، على نحو لم يعهده الناس في المنطقة لدى انتقال مدنها من حاكم مسلم ، إلى حاكم مسلم آخر . هذا بالإضافة إلى ما كان يعانيه البلد بعد احتلال الصليبيين له من تغيير طابعه من حيث السكان والمعيشة وطريقة الحياة ، وهو تغيير نستطيع أن نفهمه نحن أبناء هذا العصر ، إذا ما تذكرنا ما أحدثه الاحتلال الصهيوني الحديث لمدينة فلسطين ، بما فيها عكا وقيسارية ، من تغيير في طابعها وصيغتها ...

وربما خطر في الذهن ، أن فكرة الولاء للوطن ، بمعنى الانتماء إلى بقعة محدّدة من الأرض ، لم تكن واضحة في أذهان الناس في ذلك العهد ، نظراً لوجود فكرة الانتماء إلى بلاد الإسلام كلها ، انتماء يقوم على العقيدة في الدرجة الأولى ، وينبني عليه اعتبار الأراضي الإسلامية أينما كانت ، موطناً للإنسان المسلم من حيثما جاء ... ولكن ، ربما كان هذا الأمر يصح ، لو أن الذين انتزعوا المدينتين كانوا من أمراء المسلمين ... وإذن ، فالأرض لا تكون قد خرجت عن ديار الإسلام . بيد أن انتزاع الصليبيين للمدينتين ، كان يشكل في المفهوم الإسلامي غزواً لديار الإسلام ، يوجب الجهاد حتى على النساء ، ويبيح للمتزوجات منهن أن يخرجن للجهاد دون استئذان أزواجهن ...

وفضلاً عن ذلك ، فإن العدو الذي احتل مسقط رأس الشاعر وأرض منشئه ، لم يكن يناصب العداء أهل بقعة معينة من أرض الدولة الإسلامية الكبرى ، بل كان يريد ابتلاع كل ما يمكن ابتلاعه من أرض المسلمين ، معلناً أنه يفعل ذلك ، تحت راية الصليب ومن أجل كسر شوكة الإسلام ، مما يجعل عداؤه لدولة الإسلام الكبرى وللعقيدة الإسلامية جمعاء ، أمراً لا يحتاج إلى دليل ، ومما ينبني عليه استعداد كل مواطن في الدولة الإسلامية الكبيرة ، وكل من يدين بعقيدة الإسلام ...

وربما دفعنا خلو شعر ابن القيسراني من التحنان إلى أرض المولد والمنشأ ، إلى تساؤل عن شخصية الشاعر ، ومدى ارتباطها بالأماكن والمواطن . فهل كان تحنان ابن القيسراني للأماكن رهناً بصبوات ومتع شخصية ، تذكره بها ، وتثير تشوقه إليها ؟ قد يحملنا على هذا الاحتمال الجارح لخلق الشاعر ، شعر ابن القيسراني نفسه ، الذي يحتوي تحناناً واشتياقاً إلى أماكن كانت له فيها متع فعلية أو مزعومة ، كتلك المقطعات التي نظمها عام ٥٢٧ هـ في الحنين إلى منازل العراق . بعد أن غادرها عائداً إلى مستقره في دمشق إذ ذاك . فهو يقول في واحدة منها :

أقمت بالأنبار ذا لوعة مقسومة بين حبيين
أشتاق أهلي بدمشق وفي بغداد حظّ القلب والعين
ويقول في ثانية :

ولما ثنى طرفي اشتياقي إليكم ولم يركم كاد الفؤاد يطير
وكيف بروياكم وبينني وبينكم مهامه ثني الطرف وهو حسير
وأعجب ما ألقاه في الحباني أسير وقلبي بالعراق أسير
وفي ثالثة :

أحب الشّام وأهوى العراق فخلقي هوى وأمامي هوا
فيا معشر الناس أشكو الغرام إليكم فهل عندكم من دوا^(١) ؟

بل ان الحنين إلى مواطن الصبوات ، ليظهر في صورة أوضح في « ثغرياته » التي نظمها بعد زيارته عام ٥٤٠ هـ لاماكن كانت تحت حكم الصليبيين ، إذ يحمله ولعه بالحميلات النصرانيات في تلك المدينة على أن يتمنى الإقامة هناك ، ولو بحكم الأسر ، حتى لا يفارق موطن الجمال السافر !:

١ - انظر هذه المقطعات في مخطوطة الديوان ص ٥٦-٥٨ .

واحربا في الثغور من بلد
بها قصور كأنها يسع
هالات طاقتهن أهلة
سوافر كلما شعرن بنا
من كل وجه كأن صورته
سرت وخلصت في ديارهم
ولم أزل أغبط المقيم بهم
يضحك حسناً كأنه ثغر
ناطقة من خلالها الصور
يسم عن كل هالة قمر
برقعهن الحياء والخفر
بدر ولكن ليله شعر
قلبا تمنيت أنه بصير
للقرب حتى غبطت من أسروا!

فهو نستخلص من ذلك أن الشاعر كان يحنّ إلى الأمكنة ، على أساس من دواعي الهوى وروابط اللذة ، وإذا لم يكن له مثل هذه الدواعي والروابط في بلدي المولد والمنشأ ، لم يكن له فيها شعر ؟ ذلك أمر يصعب الجزم فيه بقول ، لا سيما أن قول الإيجاب فيه يحمل طعناً في شخصية الشاعر ، من حيث التزامه بهموم أمته ، في فترة من أخطر الفترات التي مرت بها في تاريخها ، مع أن التزام ابن القيسراني بقضايا الوطن الإسلامي الكبير والأمة الإسلامية ، يتضح بصورة قاطعة في ذلك العدد الكبير من قصائده التي نظمها في أبطال الحروب الصليبية من المسلمين ، والوقائع التي خاضوها دفاعاً عن ديار الإسلام ، ولا سيما عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود ، وهي قصائد تكشف عن إحساس قوي بالخطر الصليبي ، واندماج صادق في قضية الأمة التي كان الشاعر ينتمي إليها ، كما سيتبين في الصفحات اللاحقة .

وإذا كنا لم نخرج بتعليل حاسم لغياب شعر الحنين إلى مرايع الشاعر الأولى في شعر ابن القيسراني ، فلعلّ في واحد من الافتراضات السابقة ، أو في عدد منها شيئاً من صواب ...

١ - مخطوطة الديوان ص ٦٣، ٦٤ . انظر كذلك الصفحات من ٦١-٧٩ المحتوية على غزل للشاعر بالفرنجايات في الأرض المحتلة .

ثانياً ، في ظل حكام دمشق :

أول قصيدة نعرفها لابن القيسراني متصلة بأحداث الحروب الصليبية ، نظمها عام ٥٢٣ هـ يمدح بها تاج الملوك بوري بن طغتكين ، بمناسبة انتصاره على الصليبيين . ويروي ابن القلانسي قصة هذه الواقعة فيقول ما مؤداه : وفي سنة ٥٢٣ هـ ، طمع الفرنج في دمشق ، وجمعوا لها جمعاً عظيماً ، فتأهب تاج الملوك ، وتقابل الفريقان أياماً دون قتال ، ثم أحبط تاج الملوك محاولات الافرنج لجمع مؤونة حوران ، وضايقهم بالهجوم المتكرر ، فانخذلوا وولت متقلهمهم « وليام دبور » William de Boure في جمع من الخيالة منهزمين ، وغنم تاج الملوك غنائم كثيرة ، فابتهج الناس بهذا اليوم السعيد والنصر الحميد ، وقويت النفوس وانشرح به الصدور^(١) . أما الحافظ الذهبي ، فيربط مهاجمة الصليبيين لدمشق سنة ٥٢٣ هـ بمؤامرة داخلية في المدينة ، اشترك فيها الباطنية ، ووزير خائن لتاج الملوك ، ثم يقول : « وجاءت الفرنج ، فنازلت دمشق وسار عبد الوهاب ابن الحنبلي في طائفة يستصرخ أهل بغداد على الفرنج ، فوعدوا بالانجاد ، ثم تناخى عسكر دمشق والعرب والتركمان ، فبيتوا الفرنج ، فقتلوا وأسروا ولله الحمد »^(٢) .

١ - ذيل تاريخ دمشق ط بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٩٠٨ ص ٢٢٥-٢٢٦ .

٢ - العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ٥٣ .

والقصيدة التي أوردها أبو شامة عن الحادث في «الروضتين» وعدة أبياتها واحد وعشرون ، تسبقها العبارة التالية : «وقرأت في ديوان محمد ابن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري ، جد مجير الدين ، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين»^(١) .

غير أن هناك شيئاً يثير التساؤل حول هذه القصيدة ، وهو مطلعها كما أورده أبو شامة :

الحق مبتهج والسيف مبتسم ومال أعداء مجير الدين تعتسم
فذكر مجير الدين في مطلع القصيدة ، لا معنى له ، إذا كانت القصيدة قد قيلت في «تاج الملوك بوري» الذي تسلّم الحكم في دمشق بعد وفاة والده «أتابك طغتكين» عام ٥٢٢ هـ ، في حين أن «مجير الدين» حفيد «بوري» تولى الحكم في دمشق وهو صبي مراهق عام ٥٣٤ هـ ، وبقي فيه إلى أن انتزعت دمشق منه عام ٥٤٩ هـ^(٢) . ونرجع إلى القصيدة ، لعلنا نجد فيها قيس هداية ، يحدد هوية الواقعة ، وبالتالي تاريخها ، فلا نجد شيئاً محدداً ، فهي إشادة بالممدوح الذي يخاطبه الشاعر بثناء الخطاب كما يلي :

قدت الجياد وحصنت البلاد وأمنت العباد فأنت الحل والحرم
وجنت بالخیل من أقصى مرابطها معاهد الخزم في أوساطها الخزم
أجريت بحراً من المأذي معتكراً أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلوه سياسةً ما يعفّي إثرها ندم
وقفت بالخييش والأعلام خافقة بالنصر كل قناة فوقها علم

وأما إشارته إلى الصليبيين في القصيدة ، فتقدم لنا صورة جيش غازي

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١-١٤٢ .

٢ - انظر الصفحات السابقة : ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ .

لحب ، أحاط بالمدينة محاولاً اقتحامها وأخذها بقيادة ملك طاغ ، ولكن
هذا الجيش ينهزم أمام المسلمين :

حتى إذا ما أحاط المشركون بنا	كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لا من الأقبال في عدد	يوود حاسبه الأعياء والسأم
سروا لينتهبوا الأعمار فانتهبوا	قتلاً ويغتنموا الأموال فاغتنموا
وأدير الملك الطاغى يزعرعه	حرّ الأسته وهو البارد الشّم
وافوا دمشق فظنوا أنها جدة	ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم	إن لم يزولوا سراعاً زالت الخيم
فغادروا أكثر القربان وانجفلوا	وخلّفوا أكبر الصلبان وانهمزوا
وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت	عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم ^(١)

ولسنا نعرف غزواً صليبيّاً لدمشق على هذه الشاكلة خارج نطاق أحداث
عام ٥٢٣ هـ المنوّة عنها ، إلا ما حصل عام ٥٤٣ هـ مما سبقت الإشارة إليه .
وصحيح أن حاكم دمشق عام ٥٤٣ هـ كان مجير الدين ، إلا أن المتمكن من
السلطة في المدينة إذ ذاك كان أتابكته « معين الدين أنر » . ونستبعد أن يكون
أيّ من الرجلين هو المقصود بالمدح في هذه القصيدة ، لأن ابن القيسراني
كان في تلك السنة في حمى نور الدين ، منقطعاً إليه وإلى رجال دولته دون
حكام دمشق ، الذين لم تكن علاقاتهم مع نور الدين ودية دائماً .

ولعلّ من الأمور المحتملة التي قد تزيل الإشكال المترتب على ذكر
مجير الدين في أول القصيدة ، أن يكون بيت المطلع قد افتتحت به قصيدة
قالها الشاعر في مجير الدين عندما وفد عليه عام ٥٤٧ أو عام ٥٤٨ هـ ، ثم
اختلط الأمر على من كتبوا شعر ابن القيسراني ، فضموا هذا البيت إلى القصيدة
الآنفة الذكر لتشابه في الوزن والقافية .

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١ - ١٤٢ .

ولعل أبا شامة لم يكن واضحاً دقيقاً في التعبير عما يريد حينما قدّم
للقصيدة ، فأراد بقوله : « أول القصيدة » بعد قوله : « وهي واقعة تشبه
الواقعة في زمن مجير الدين » مطلع القصيدة التي نظمت في مجير الدين في
تاريخ لاحق (٥٤٧ أو ٥٤٨ هـ مثلاً) ، ثم استأنف الحديث عن قصيدة
ابن القيسراني في تاج الملوك بوري عند قوله : « يقول فيها » ... وأورد
بعد ذلك أبيات القصيدة التي نظمت عام ٥٢٣ هـ ^(١) .

١ - انظر كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١ .

ثالثاً ، في كنف عماد الدين زنكي :

والقصيدة الثانية ، من حيث التسلسل التاريخي ، التي وقفنا عليها لابن القيسراني مما يتصل بالوجود الصليبي في بلاد الشام ، موجودة في كتاب « الروضتين » كذلك^(١) ، في أربعة عشر بيتاً ومطلعها :

حذار منا وأنى ينفع الحذر وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر

ويورد أبو شامة ما يلي حول الظروف التي نظمت فيها القصيدة : « ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج ، فأغار عليها . واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه ، فلقبهم بالقرب من حصن بارين^(٢) ، وهو للفرنج ، فصر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله ، إلا ما يُحكى عن ليلة «الحرير» ونصر الله المسلمين ، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم ، فدخلوا حصن «بارين» ، وفيهم ملك القدس ، لأنه كان أقرب حصونهم ، وأسلموا عدتهم وعتادهم ، وكثر فيهم الجراح . ثم سار الشهيد إلى حصن «بارين» فحصره حصراً شديداً ، فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن ، فأبى إلا أخذهم قهراً . فبلغه أن من بالساحل

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨-٨٩ .

٢ - بين حلب وحماة من جهة الغرب . معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤-٣٥ .

من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم ، وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر . فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل ، ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك ، لقوة الحصر عليهم . فأعادوا مراسلته في طلب الأمان فأجابهم وتسلم الحصن ، وساروا ، فلقيتهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم ، فأخبروهم بتسليم الحصن ، فلاموهم وقالوا : عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين ، فحلفوا لهم « انا لم نعلم بوصولكم ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الآن . فلما عميت الأخبار عنا ، ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا ، فحقتنا دماءنا بتسليم الحصن »^(١) .

ويقول ابن الأثير في هذه الواقعة^(٢) : « وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين . فإن أهله قد أخرجوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها ، وتقطعت السبل ، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم . وفي مدة مقامه على حصن بارين سير بجنده إلى المعرة وكفرطاب^(٣) فاستولى عليها وملكها وهي بلاد كبيرة ، وقرايا عظيمة » .

والقارئ لقصيدة ابن القيسراني في هذه المعركة يلحظ شعوره بالانتماء إلى الجماعة ، والتحدث باسمها بلغة ملؤها ثقة بالنفس ، تدفع إلى الأزرار بالعدو :

حذار منّا وأنى ينفع الحذر وهي الصوارم لا تبقي زلا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك من خيله النصر لا بل جنده القدر
سلّوا سيوفاً كأغماد السيوف بها صالوا فدا غمدوا نصلاً ولا شهروا

والحديث عن دور البطل في هذه القصيدة ، كما هو في القصائد العربية

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٧-٨٨ .

٢ - كتاب الأتابكة ص ١٠٩ - ١١٠ .

٣ - بين المعرة وحلب ، في بيرة معطشة تجمع مياه أمطارها في صهاريج . معجم البلدان

ج ٧ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

القديمة كلها تقريباً ، يحتل مكان الصدارة . وهو هنا ، بحكم طبيعة الحرب القائمة ، بطل اسلامي ، يقاتل في سبيل الله ضد أعداء الدين :

حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم في مأزقٍ من سناه يبرق البصر
ولتوا تضيق بهم ذرعاً مسالكهم والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم طول، وإن كان في أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عيناً ولا أثرأ يخاف والكفر لا عين ولا أثر
والهيبه التي كانت للأفرنج في قلوب المسلمين . وآت بظهور عماد
الدين الذي يمثل أول حركة استرداد إسلامية في المنطقة :

فلا تخف بعدها الأفرنج قاطبة فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر
إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حاربوا أوطاردوا طردوا أو حاصروا حصروا

وهي حالة تختلف عن الحالة التي كانت قائمة قبل عماد الدين :

وطالما استفحل الخطب البهم بهم حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف مفرع أبكار أنفسهم ومن هنالك قبل الصارم الذكر

وما دام النصر يحفز إلى انتصارات أخرى ، فليس بغريب أن يتطلع
الشاعر بعد انتصار عماد الدين في « بارين » إلى استرداد الأراضي الشامية
المحتلة كلها :

ولا انثنى النصر عن أنصار دولته بحيث كان وإن كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة كأنما حل في أكنافها عسر

وهذه اللفتة إلى شخصية إسلامية عظيمة (عمر بن الخطاب) . لها
ارتباط تاريخي بالفتوح الإسلامية الأولى في بلاد الشام ، من الأمور التي
تلقانا كثيراً في شعر ابن القيسراني ومعاصريه من الشعراء ، وكأنما يريدون
بإقامة الروابط ما بين الحاضر والماضي الإسلامي المجيد الغني بشخصيات
فذة ، استثارة إحياءات فكرية وعاطفية في نفوس المسلمين جميعاً ، والمقاتلين

منهم بصورة خاصة ، بسبب ما تركه هذه الایحاءات من أثر فاعل في النفوس .

. . .

والقصيدة الثالثة لابن القيسراني ، من حيث التسلسل التاريخي ، من شعره المتصل بالصليبيين ، قيلت في أهم نصر حققه عماد الدين زنكي في حياته - ذلك هو احتلال الرّها ، قاعدة أول إمارة أقامها الصليبيون في المنطقة . وتقع القصيدة كما أوردتها صاحب الروضتين ، في ثمانية وعشرين بيتاً^(١) . في حين أورد العماد الأصفهاني في الخريدة أبياتاً منها^(٢) ، وهي تبدأ بقول الشاعر :

هو السيف لا يغنيك إلاّ جلاده وهل طوق الأملاك إلاّ نجاده

ويقول أبو شامة في روايته لحديث فتح الرّها^(٣) : في فتح الشهيد الرّها في جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ ، وكانت لجوسلين ، وهو عاني الفرنج وشيطانهم ، والمقدم على رجالهم وفرسانهم . وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً ، وأعادها إلى حكم الإسلام . وهذه الرّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً . وهي إحدى الكراسي عندهم . فأشرفها البيت المقدّس . ثم أنطاكية ، ثم رومية . ثم قسطنطينية . والرّها . وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرّها شرّ عظيم . وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات ، على طريق سنجار ، عدّة حصون ، كسروج ، والبيرة ، وجملين ، والموزّر . وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ، ورأس عين والرّقة . وأما حرّان ، فكانت معيّن في الخزي كلّ يوم . قد صبحوها

١ - انظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٦ .

٢ - الخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

٣ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٤ - ٩٦ .

بالغارة . فلما رأى الشهيد الحال هكذا ، أنف منهم ، وعلم أنه لا ينال غرضاً ما دام جوسلين بها ، فأخذ في إعمال الحيل والخداع ، لعلّ جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع ، فتشاغل عنها يقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام ... فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظنّ أنه لا فراغ له إليه ، وأنه لا يمكن الاقدام عليه . ففارق الرّها إلى بلاده الشاميّة ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذنائره وأمواله . فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرّها ... وألحّ الشهيد في حصارها ، فملكها عنوة ... ثم رتبّ البلاد وأصلح من شأنه وسار عنه ، فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها ، وأخلى ديار الجزيرة من معرّة الفرنج . وأصبح أهلها بعد الخوف آمينين ، وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء».

ثم يذكر أبو شامة بعد إيراد قصة الفتح قصيدة ابن القيسراني ويصدر لها بقوله : « قلت » وهنأه القيسراني عند فتح الرّها بقصيدة أولها : « هو السيف ... » .

وتحمل القصيدة منذ البداية احساس النشوة بالظفر الكبير . الذي حققه البطل المجاهد في سبيل الله والإسلام :

هو السيف لا يغنيك إلاّ جلاده	وهل طوّق الاملاك إلاّ نجاده ؟
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا	سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخرّاً بطوله	ولم يكُ يسمو الدين لولا عماده
ليهنّ بني الإيمان أمن ترفعت	رواسيه عزّاً واطمأنّ مهاده
وفتح حديث في السماع حديثه	شهبيّ إلى يوم المعاد معاده

ولكبار الشاعر للفتح يدفعه لأن ينتقل من تقارع السيوف إلى تقارع العقائد :

لقد كان في فتح الرّهاء دلالة على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجّون ميلاد ابن مريم نصره ولم يُعْنِ عند القوم عنه ولاده
وينظر ابن القيسراني إلى فتح عمورية ، وإلى قصيدة أبي تمام المشهورة
في ذلك الفتح حين يقول :

مدينة إفلك منذ خمسين حجة يفلّ حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها ترقّت إليه خان طرفاً سواده
وجامحة عزّ الملوك قيادها إلى أن ثناها من يعزّ قياده
فأضرمها نارين : حرباً وخدعة فما راع إلاّ سورها وانهداه
فصدّت صدود البكر عند افتضاضها وهيّات كان السيف حتماً سفاده
ومن مركز القوة ، يتحدّى الأعداء ، ويعبّر عن شماتته بهم ، ويهدّدهم
وهو يرتفع بممدوحه إلى آفاق سامقة :

إلى أن يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذلّ غاويكم وعزّ رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأي لو أن عزمه رمى سدّ ذي القرنين أسمى سداه
وقل للملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها ان البلاد بلاداه

ويغمر الشاعر احساس بالأمل الزاهر في المستقبل ، وهو يرى في سيّده
صورة المجاهد المسلم الذي تنصره ملائكة السماء ، حتى ليصوّر له الأمل
الجامح أنّ عاصمة امبراطورية الروم نفسها لم تعد بعيدة عن متناول البطل :

كذا عن طريق الصبح فليته الدّجى فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السموات جنده فأية أرض لم ترُضها جياده
ولله عزم ماء سيحان ورده وروضة قسطنطينيه مُستَراده

~ * ~

ويبدو أن فتح الرّها كان في نظر الشاعر ، يستحق أكثر من قصيدة

واحدة . ولذا ، فإننا نجد أبياتاً من قصيدة أخرى ، ينهى بها الشاعر القاضي كمال الدين أبا الفضل الشهرزوري بفتح المدينة . وهذا القاضي كان من الشخصيات التي اعتمد عليها عماد الدين كثيراً ، فقد أرسله عام ثلاثين وخمسائة إلى بغداد رسولاً عنه ، بعد خلع الخليفة الراشد وبيعة المقتفي ، فنجح في وفادته ، وكسب الكثير لعماد الدين . ثم ولاه نور الدين فيما بعد قضاء دمشق والشام ، وفوض إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف ودار الضرب ، وقيل انه اتخذه وزيراً^(١) .

والأبيات المذوّعة عنها ، وعدتها أحد عشر بيتاً ، أوردها أبو شامة في «الروضتين»^(٢) ، وأول بيت في القصيدة ، لم يورد منه أبو شامة إلا صدره فقط : «هي جنة المأوى فهل من خاطب»^(٣) .

ويلحظ الناظر في الأبيات محاولة الشاعر ربط هذا الفتح بمعارك سابقة للإسلام ، لها إحياءات معينة للإنسان المسلم ، ومنها «بلر» و «عمورية» :

فتح الفتوح مبشراً بتمامه	كأنفجر في صدر النهار الآيب
لله أيتة وفقرة بدرية	نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه	كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدكم جيش الملائك نصرة	بكتائب محفوفة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تم ربح الصبا	جند النبوة هل لها من غالب !؟

وتختلط شماتة الشاعر في القصيدة ، بتحدّي العدو وتهديده ومحاولة تلمّس الأعذار للمسلمين الذين قعدوا عن الجهاد قبل عماد الدين :

١ - انظر فيما يتعلق بالقاضي الشهرزوري : الحريدة ج ٢ ص ٣٢٣ . ذيل تاريخ دمشق ٣٥٩ . تاريخ الأتابكة ص ٩٧ - ٩٨ . مرآة الزمان ج ٨ ص ٣٤٠ - ٣٤١ . كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٩ - ٩١ ، ٢٣٦ ، ٣١٠ . مفرج الكروب ج ١ ص ٧٩ ، ٦٨ - ٨١ .
٢ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٨ - ٩٩ .
٣ - المصدر نفسه ص ٩٨ .

لا أن يا أسرى المهالك بعدها
شدّآ إلى أرض الفرنجة بعدها
أفغركمُ والثأر رهنُ دمائكم
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه

ضاق الفضاء على نجاة الهارب
إن الدروب على الطريق اللاحب
ما كان من إطراق لحظ الطالب؟!
دون الفريسة فهو عين الوائب !

رابعاً ، في الأرض المحتلة :

بعد سنة واحدة فقط من فتح الرّها ، أي في عام أربعين وخمسمائة ، نسمع من ابن القيسراني ، وهو إذ ذاك ابن اثنتين وستين ، نغمّاً يفجأنا ، لا يخلو رغم غرابته وطرافته من دلالات ذات فائدة ، لدارس العلاقات التي كانت قائمة ما بين المسلمين والصليبيين في المنطقة ، وكذلك للمهتم بالقضايا الاجتماعية والحضارية . هذا النغم الجديد ، ينطلق من مجموعة من المقطّعات الشعرية ، التي نظمها الشاعر عندما دخل أنطاكية المحتلة ، ومرّ بالعواصم ، فاستحسن مواضع معيّنة بما فيها من مناظر ، ومن فيها من جميلات المنطقة أو جميلات أوروبا الوافدات مع الغزاة . وقد أطلق على هذه المقطّعات في مخطوطة الديوان اسم « الثغريات »^(١) . وقد سبقت الإشارة إلى ما أورده العماد في الخريدة عن قصة زيارة الشاعر لأنطاكية ، وما نظمه من مقطّعات خلال تلك الزيارة^(٢) .

وأولى هذه المقطّعات تتحدّث عن راهبات جميلات يتعبدن في الكنائس :
كم بالكنائس من مبتلة مثل المهابة يزينها الحفر
من كل ساجدة لصورها لو ألصقت سجدت لها الصور

١ - مخطوطة الديوان ص ٦١ .

٢ - انظر الخريدة ج ١ ص ٩٩ .

قديسة في جبل عاتقها طول وفي زنتارها قصر
غرس الحياء بصحن وجنتها ورداً سقى أغصانه النظر
وتكلمت فيها الخفون فلو حاورتها لأجسابك الحور
وجلّت مدارعها غداثها فأراك ضعفي ليلة قمر^(١)

والناظر في المقطعة ، يجد عبث شاعر يذكره بعث أبي نواس وأضرابه من شعراء العباسيين المجّان ، الذين كانوا يترددون على أديرة النصارى للاستمتاع بالوجه الجميل والخمر المعتقدة . ولكن الجديد في الأمر هنا ، والغريب فيه في آن واحد ، أن ابن القيسراني يرود كنائس وأديرة ، في أرض اغتصبت من المسلمين ، وأجلى أهلها عنها قهراً ، وأقام أعداؤهم الغزاة فيها اغتصاباً ، في حين أن أبا نواس وأصحابه من الشعراء المجّان ، كانوا يعيشون في أرض تدين للدولة الإسلامية بالطاعة ، وسكانها ، بمن فيهم من الرهبان والراهبات ، كانوا من رعايا الخليفة العباسي ، ومن هنا كان انعدام المرارة في شعر السابقين من شعراء بني العباس أمراً طبيعياً ، في حين أن انعدامها في « ثغريات » ابن القيسراني أمر يثير العجب ، وبخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، الموقف المعادي الصلب الذي اتخذته الشاعر في قصائده التي نظمها في معارك عماد الدين ونور الدين ضدّ الصليبيين قبل عام ٥٤٠ هـ - عام زيارته للثغور - وبعد هذا التاريخ .

هل هو عبث شاعر يتلمس الجمال أينما كان دونما اعتبار لارتباطات الجمال العرقية والدينية ، ودونما اهتمام بالمعسكر الذي ينتسب إليه الجمال ؟ ربّما ... ولكن الأمر يظلّ غريباً ، لا سيما إذا تذكرنا أن الشاعر لم يكن في سنّ الصبوات العارمة الجامحة ، إذ كان قد تجاوز الستين كما ذكرنا ، ولعلّ روحه كانت تستعصي على الشيخوخة وتشبّث بالشباب ، حتى بعد أن تنقضي سنوات الشباب ...

١ - مخطوطة الديوان ص ٦٢ .

وتصور أبيات المقطعة المشاهد النصرانية في بيئة الكنيسة بألفاظ مأوفة لدى النصارى ، ومع ذلك لم يتخلّص الشاعر ، وهو يصف الراهبة الجميلة ، من التصور العربي الشرقي للجمال ، كما هو واضح في البيت الأول من المقطعة ، والأبيات الثلاثة الأخيرة منها ...

وإذا ما تابعتنا رحلة الشاعر في الأرض المحتلة ، نجد أدلة جديدة على عبثه ، كما يتضح من المقطعة التالية :

كم لي بأنطاكية من هوى	لا أنثني عنه بتعفيف
إذ لا أجيل العين إلا على	جيش من الأقمار مصفوف
من كل بيضاء مسيحية	ما عندها البدر بموصوف
تجري ثناياها المآقي فما	تلحظ طرفاً غير مطروف
فالعين خوف العين مصروفة	عنها وما القلب بمصروف
هذا ، وكم وجه كشمس الضحى	باهيكل المكشوف مكشوف ^(١)

ولو صدقنا الشاعر فيما ادّعاه في البيت الأول من هذه المقطعة لوفر في أذهاننا أن هواه في أنطاكية لم يكن عفيفاً .. ولعلّه مجرد ادّعاء بعثت عليه مغالبة الشيخوخة، ومكابرة الزمن ، ليس إلا ... ، ومن الواضح أن سفور المرأة الفرنجية ، قد لفت انتباه الشاعر ، لأنه أمر غير مألوف في البيئة الإسلامية حيث تحتجب الحرائر من المسلمات ، ولا يُتحن لامثال ابن القيسراني فرصة التفرس في وجوههن ...

ونطالع اندهاشاً مماثلاً للجمال السافر ، إلا أنه ممتزج بتحرّج المسلم التقي ، فيما كتبه الرحالة ابن جبير في وصف حفل زفاف صليبي في صور ، وذلك إذ يقول : « ... والمسلمون وسائر النصارى من النظّار قد عادوا في طريقهم

سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون ذلك عليهم » . وعندما يفرغ من وصف المنظر والموكب ، يقول متحرّجاً : « فأدّانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة منه ! »^(١) .

ولعلّ من الأمور التي تثيرها رحلة ابن القيسراني في منطقة أنطاكية ، أمر الاتصال ما بين الطرفين المتحاربين ، ودخول المسلمين الأرض المحتلة ، وما يقابله من دخول الصليبيين الأرض الإسلامية . والذي يبدو أن مثل هذا الاتصال ، خاصة في أيام الهدن ، كان أمراً مألوفاً . ويكفي أن يعود المرء إلى كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، ليرى أمثلة عديدة على اتصال كان قائماً ما بين المسلمين والصليبيين ، في ظروف مختلفة بصورها لنا أسامة تصويراً أميناً^(٢) .

وعندما زار الرحالة الأندلسي ابن جبير المشرق الإسلامي خلال حكم صلاح الدين ، حدثنا حديث المتعجب المستغرب عن هذا الاتصال . فهو يذكر مثلاً أن سبائا الفرنج كانت تدخل بلاد المسلمين في الوقت الذي كانت فيه قوافل المسلمين التجارية تدخل البلاد التي يسيطر عليها الفرنج . ويتحدث عن دخول أسرى صليبيين أخذوا من نابلس إلى دمشق في عهد صلاح الدين ، في حين كانت القافلة التي فيها ابن جبير نفسه تخرج إلى بلاد الفرنج^(٣) . وفي مكان آخر من « رحلته » يشير ابن جبير إلى أنه على الرغم من القتال بين الفرنج والمسلمين ، فإن سير القوافل من مصر إلى دمشق عبر البلاد التي يحتلها الفرنج كان قائماً ، وكذلك اختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ولا يعترض . ثم يقول : « وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهم من الأمانة على غاية . وتجار النصارى أيضاً

١ - رحلة ابن جبير ط بيروت ١٩٥٥ ص ٢٧٨ .

٢ - انظر كتاب الاعتبار حرره فيليب حّي مطبعة جامعة برنستون سنة ١٩٣٠ ، ص ١٣٨٠١٣٧٠١٣٥٠١٣٤٠١٣٣٠١٣٢٠٩٧ .

٣ - رحلة ابن جبير ص ٢٧١ .

يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم ، والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب ! »^(١) ويعقب ابن جبير على هذا الأمن الغريب بقوله : وشأن هذه البلاد في ذلك ، أعجب من أن يُستوفى الحديث عنه «^(٢) .

والذي يوضح لدارس « ثغريات » ابن القيسراني ، أن الأماكن التي كان يهتم بها الشاعر إبان زيارته لأنطاكية وأعمالها ، هي دور العبادة المسيحية . التي تجتذب المتعبدات ، مع الاهتمام بالحميلات منهن على وجه الخصوص ، أو القصور التي تطل من طاقاتها الحسان . لا غرو إذن أن يقول في أنطاكية :

واحربا في الثغور من بلد	يضحك حسناً كأنه ثغر
به قصور كأنها بيع	ناطقة من خلالها الصور
هالات طاقتهن آهله	يبسم عن كل هالة قمر
سوافر كلما شعرن بنا	برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته	بدر ولكن ليله شعر
سرت وخلقت في ديارهم	قلباً تمنيت أنه بصر
ولم أزل أغبط المقيم بهم	للقرب حتى غبطت من أسروا ^(٣)

أو يقول في متعبدةٍ من النصرانيات جميلة^(٤) :

أمعظمه الصليب وددت أني	ودين الله عندكم صليب
إذا أقبلت قبلي حبيب	أسر به وعانقني حبيب
وهل يبني وبين العود فرق	يرى إلا التفجع والنحيب

١ - رحلة ابن جبير ص ٢٦٠ .

٢ - المصدر نفسه ص ٢٦١ .

٣ - مخطوطة الديوان ص ٦٣ - ٦٤ .

٤ - مخطوطة الديوان ص ٦٤ .

هبيني صورة يُحَى عليها أجيب إذا دعيت ولا تحجب
فلم يُسمع بأطرف من فتاة من الرهبان قونتها أديب
فلو قد يسها ناجاه لفظي لأمسي والنسيب له نسيب

وقد نتساءل ، ونحن نستقرئ في هذه الأبيات ، عبث الشاعر الشيخ ،
الذي يحدّق النظر في نوافذ المباني لاستجلاء طلعات الحسان ، ويبيدي ظرفاً
وخفة روح يذكران بأبي نواس : ما سرّ تغيب الشعور بالمرارة والعداوة
عند الشاعر ، وهو يحوس في أرض احتلت قسراً وانتزعها العدو من بني
قومه ؟ هل هي طبيعة الشاعر الميالة إلى اللهو والصبوات ، على الرغم من كثر السنين
عليه ، أم أنّ أنطاكية بالذات لم تكن تثير في نفسه من الأشجان ما قد تثيره
مدن أخرى محتلة كانت أقرب من أنطاكية عهداً بالمسلمين وأوثق صلة
بدنيا الإسلام وتاريخه ؟

كان قد مرّ على سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين عندما زارها ابن
القيسراني زهاء خمسين عاماً^(١) . وعندما سقطت في أيديهم ، كان ابن
القيسراني في الثالثة عشرة من عمره ، ويقع في قيسارية على الساحل الفلسطيني .
ولم يكن قد مر على استعادة المسلمين لأنطاكية من أيدي البيزنطيين أكثر
من أربعة عشر عاماً . وذلك لأن المدينة استعادها سليمان بن قتلмыш السلجوقي
صاحب قونية عام ٤٧٧ هـ ، بعد أن لبثت في أيدي الروم البيزنطيين مئة
وعشرين عاماً^(٢) . ترى هل كانت هذه الأسباب عاملاً على أن يكون انسلاخ
أنطاكية عن ديار الإسلام لا يثير شجون شاعر كابن القيسراني ، وربما
شجون مسلمين غيره كذلك ، وهم يرون أن المدينة لم تكن في حظيرة الإسلام
خلال ما يناهز القرنين إلا مدة أربعة عشر عاماً فقط ، ومن ثمّ فإن شأنها
غير شأن عكا ويافا والقدس ، التي لم تخرج عن حوزة الإسلام منذ أن

١ - سقطت المدينة في يد الصليبيين عام ٤٩١ هـ . الكامل ج ١ ص ١٠٣ .

٢ - انظر العبر في خبر من غير ج ٣ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

دخلت فيها زمن عمر بن الخطاب ، إلا في هذه الفترة على أيدي غزاة وافدين من أوروبا تحت راية الصليب ؟ هذا مجرد ضرب من الاجتهاد في التفسير والتعليل قد يكون فيه شيء من صحة ...

ولو واصلنا بعد ذلك تتبعنا لثغريات ابن القيسراني لوجدناها لا تختلف في مضمونها العام عما سبق . فهو ينتجع جميلات أنطاكية في معابدها متماجناً متصايهاً متغنياً بالحياة الحضورية مزرياً بحياة البادية ، أو يرسم معالم الفتنة الفرنجية كما في قوله :

لقد فتنني فرنجية نسيم العبير بها يعبق
ففي ثوبها غصن ناعم وفي تاجها قمر مشرق
وإن تك في عينها زرقة فإن سنان القنا أزرق^(١)

أو يرسم معالم أنطاكية العمرانية كتعرضه لوصف هيكل القسيان الشهير في المدينة ، حيث يحشد في أبياته التي قالها فيه طائفة من التعابير والألقاب التي تدل على معرفة الشاعر الدقيقة بالكنيسة المسيحية وأصناف العاملين فيها ، وما يدور فيها من صنوف العبادة ، مما يدل على ألفة ببعض جوانب الحياة عند الصليبيين :

يا غزال الثغور بالقسيان أنت من غال ذكره نسياني
حبذا يوم باكرتُنَا الزنانير ترينا القضبان في الكشبان
وعلى موقف الأساقف ظبي يفرس الأسد من بني الفرسان
غصن نابت من المرمر المنضود في غير منبت الأغصان
ألذبح النفوس سموه بالمذبح أم للصلاة والقربان؟
أخترته القسوس عن رتبة الصدر وحطته في صدور الأماني
ذاك وقت سخا عليّ به الدهر فيا هل لذلك اليوم ثمان

١ - مخطوطة الديوان ص ٦٦-٦٧ .

فأرى من أراي الشمس شماساً على الأرض تالي الألمان^(١)

ويقدم لنا الشاعر معلماً آخر من معالم أنطاكية الدينية حين يحدثنا في مقطوعة له عن كنيسة «السيدة» ، وهي قبة شاهقة البنيان عجيبة الوضع لنصارى أنطاكية خاصة دون الافرنج^(٢) ، ويبدو أنها كانت عجيبة الوضع حقاً ، مما دفع الشاعر إلى أن يقول فيها :

اني رأيت بأنطاكية عجباً	معرّس الفكر فيه غير مشترك
على اسم مريم فيها هيكل صلف	سماؤه ذات أنوار من الحبلك
تخوي إذا أذن الناقوس معركة	لعسكر الحسن فيها أيّ معترك
ناهيك من صورة تعنو لصورتها	حسناً ومن مملّك يومي إلى ملك
لما رأيت بها الأقمار طالعة	عجبت كيف أقاموا قبة الفلك ^(٣)

ولا بدّ أن كنيسة «السيدة» هذه ، قد تركت تأثيراً قوياً في نفس الشاعر ، جعله يعود للحديث عنها في منظومة أخرى احتوت أربعة عشر بيتاً ، ذكر فيها العابدات الفاتنات^(٤) ...

على أن كنيسة «السيدة» ، لم تكن الكنيسة الوحيدة التي أمها الشاعر ليمتّع النظر بالجمال الحيّ الذي تشتمل عليه الكنائس عادة ، لا سيما في أوقات العبادة والمواسم الدينية .

وإذا كانت «السيدة» : هي كنيسة نصارى أنطاكية المحليين ، فثمّة كنيسة أخرى في أنطاكية للافرنج خاصة . هي كنيسة «بربارة» ، وقد أعطاها

١ - مخطوطة الديوان ص ٦٧ .

٢ - انظر مخطوطة الديوان ص ٦٨ .

٣ - المصدر نفسه ص ٦٨ .

٤ - المصدر نفسه ص ٦٩ - ٧٠ .

الشاعر هي الأخرى حظها من الاهتمام ، حين نظم فيها خمسة عشر بيتاً ، أظهر فيها من جديد معرفة بالكنيسة المسيحية ، وما يرتبط بها من أسماء وألقاب وطقوس^(١) .

وكأنّ ابن القيسراني قد جعل من وكده أن يستقصي كنائس أنطاكية ودور العبادة فيها زيارة ، يتفقد فيها صنوف الجمال المسيحي ، ما كان منه محلياً أو وافداً من وراء البحار ! من أجل ذلك ، كان له تعريج على كنيسة « اشمونيث » وهي « للفريرية والنصارى »^(٢) . وكأنّ ابن القيسراني في منظومته ذات الأحد عشر بيتاً التي نظمها في « اشمونيث » أراد أن يتقمّص شخصية أبي نواس في الترنديق وادعاء الفتك والغزل بالمذكر ، وذلك بالتطرّف وإيراد المصطلحات الكلامية والدينية :

لو كنت ثالثنا بأشمونيتا	حتى ترى التوحيد والثليثا
لرأيت منّا أعيناً طمّاحة	تستحسن التذكير والتأنيثا
(ما بين) محتضن مجاذب ردفه	فكأنه احتقب الرمال الميثا
ومهفّف لعب الصبا بقوامه	حتى توهّمت الشباب خنيثا
لما سألت علالة من ريقه	ملاً الزجاجة ثم جاء حثيثا
قلت اسقني من فيك ان رضابه	قد ردّ أطيب ما حملت خبيثا
قال اعتبر (...) المزاج نسبية	ما عند ثغري يفهم الثالوثا
وبدا يناظرني بها عن دينه	فقطعت ليلاً بالجدال مكثا
يختص عيسى بالصلاة واصطفي	لوطاً وتذكّرنا المدامة شيثا
يا ليلة أفردت طرفي فجرها	عنقاً يكون به المطي حديثا ^(٣)

وإذ يذهب الشاعر إلى دير سمعان . على بعد فرسخين من أنطاكية

١ - انظر القطعة في مخطوطة الديوان ص ٧٠ - ٧١ .

٢ - انظر مخطوطة الديوان ص ٧١ .

٣ - مخطوطة الديوان ص ٧٣ .

حيث ، يجتمع النصارى في عيد الصليب ، فإنه يحيي بذلك سنة المجان من شعراء العباسيين ، الذين كانوا يؤمون « الديارات » التماساً للهو . وفي الاثني عشر بيتاً التي نظمها الشاعر في الدير ، تراءى لنا كالمعتاد المشاهد النصرانية والألفاظ الخاصة بها ، مثلما يترأى لنا مجون الشاعر ، ممزوجاً بسمة علم أو تعالم^(١) .

وليس فيما تبقى في الرحلة وما قيل فيها من شعر معالم جديدة . فهي هو ابن القيسراني يتغنى بجارية من مولدات أنطاكية اسمها « ماريّا » كانت « من أحسن الناس خلقاً وخلقاً تغني بالدف » ، فيكشف عن نفس ذواقه للهو ومعرفة بعادات النصارى :

فيا حسن ذاك الوجه إذ روعه فعوّذه منها بتصليبه اليد^(٢)

أو يؤكد من جديد افتتاحه بالحضرة الناعمة وتفضيلها على البدوية الخشنة :

إذا ما زرت « ماريّا » فما « سعدى » وما « ريتا » ؟
لها وجهٌ مسيحيٌّ ترى الميّت به حيّاً !^(٣)

والجري وراء اللهو ، هو الذي تمّ عنه مقطعاته الأخرى ، ومنها واحدة في خمارة بجسر الحديد على باب أنطاكية^(٤) ، وأخرى قالها عندما مرّ بالاثارب^(٥) وثالثة نظمها عندما اجتاز بعزاز من ضواحي حلب^(٦) ورابعة في مولّد من مولدي الافرنج أبصره « بياعوا » من بلاد الشمال^(٧) ، وحين

١ - انظر مخطوطة الديوان ص ٧٣-٧٤ .

٢ - مخطوطة الديوان ص ٧٥ .

٣ - المصدر نفسه ص ٧٦ .

٤ - المصدر نفسه ص ٧٧ .

٥ - المصدر نفسه ص ٧٨ .

٦ - المصدر نفسه ص ٧٨ - ٧٩ .

٧ - المصدر نفسه ص ٨٠ .

تحاول غانية مسيحية في بلدة «عمّ» أن تردّه إلى صوابه وتذكره بسنّه ،
لم يجد ما يردّه به عليها إلا التحسر على أيام الشباب الفاتنة :

واحيائي وقد مررت بعمّ من مسيحية دعنتي بعمّي
أين عصر الشباب أيام أدعوها صبيّاً بجديتي وبأمي !

هذه هي تجربة ابن القيسراني في أرض المسلمين المحتلة ، حين زارها
وهو ابن اثنتين وستين . أنها تجربة شيخ متشبث بأذيال الصبا ، يرتاد مواطن
الجمال حيثما كان للجمال فرصة اجتماع في مكان . وهو إذ يتحدثنا عن
تجربته مع الجمال الأجنبي صادقاً أو مدّعيّاً ينقل إلينا بقصد أو بغير قصد ،
صوراً من حياة الصليبيين والنصارى المحليين ، في كنائسهم وأديرتهم وقصورهم
ومواسمهم وأعيادهم ومجالس لهوهم ، دون أن تبدو في حديثه عن مواطن
الخصوم وحياتهم . المראה التي يتوقعها المرء من شاعر عانى هو نفسه من
الغزو الصليبي وما انبنى عليه من إقصاء عن الأهل والوطن ...

خامساً : في دولة نور الدين محمود

بعد هذه الانعطافة الموقوتة في شعر ابن القيسراني المرتبط بالوجود الصليبي في المشرق الإسلامي نعود لنلتقي مع الشاعر في الخط الطبيعي الذي سار عليه عموماً - الخط الجهادي الذي سلكه في معظم ما نظم من شعر يتعلق بالصليبيين .

والقصيدة التي تطالعنا هنا في مسيرتنا مع الزمن ، أوردها العماد الأصفهاني في الخريدة^(١) في ستة وأربعين بيتاً ، في حين أورد أبو شامة منها خمسة عشر بيتاً فقط^(٢) . وقد ظن فاروق جرّار أن القصيدة في مدح كمال الدين الشهرزوري^(٣) مع أن القصيدة في مدح « جمال الدين » وزير الموصل ، كما بيّن ذلك صراحة أبو شامة في « الروضتين » . وذلك حين يقول : وللقيسراني قصيدة مدح بها جمال الدين وزير الموصل ، ذكر فيها فتح « الرّها »^(٤) . وفضلاً عن ذلك فإن عبارة العماد الأصفهاني توحى بجلاء أن الممدوح هو جمال الدين المذكور ، وذلك لأنه يقدم للقصيدة بقوله : « ومما أنشده بالرقّة ، قصيدة

١ - الخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ١٠٨ - ١١١ .

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

٣ - انظر رسالة الماجستير (على الآلة الكاتبة) ص ٧٩

٤ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٦ .

مزجت الجزالة بالرقّة . يهنئه فيها بفتوح مدينة الرّها وذلك سنة... وخمسمائة^(١) . والضمير في « يهنئه » يعود قطعاً إلى جمال الدين . لأن القصيدة السابقة مباشرة في « الخريدة » صدرت بهذه العبارة : « ومن جمالياته الرائعة »^(٢) . وهناك وهم آخر وقع فيه كل من الدكتور شكري فيصل الذي حتقّق « الخريدة » قسم شعراء الشام . وفاروق جرّار في رسالة الماجستير التي كتبها عن « ابن القيسراني - حياته وشعره » : ذلك هو تصوّر كل منهما أن التهنية بفتح الرّها المضمنة في هذه القصيدة . كانت بالفتح الأول للمدينة على يد عماد الدين زنكي . فالدكتور شكري فيصل يكتب في حاشية « الخريدة » معقباً على التاريخ المبتور « سنة ... وخمسمائة » بقوله : « فراغ في « ب » . وكان فتح الرّها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . فتحها عماد الدين زنكي »^(٣) . ويورد فاروق جرّار كذلك القصيدة في معرض حديثه عن فتح الرّها على يد عماد الدين سنة تسع وثلاثين وخمسمائة^(٤) .

والواقع أن هذه القصيدة قيلت في فتح الرّها الثاني على يد نور الدين محمود عام ٥٤١ هـ بدليل ما يلي :

أ - أورد أبو شامة في « الروضتين » هذه القصيدة في معرض الحديث عن فتح الرّها الثاني على يد نور الدين عام ٥٤١ هـ^(٥) .

ب - يورد الشاعر في أحد أبيات القصيدة لقب فاتح الرها « الملك العادل » وذلك حين يقول :

-
- ١ - الخريدة ج ١ ص ١٠٨ .
 - ٢ - المصدر نفسه ص ١٠٦ .
 - ٣ - الخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ١٠٨ (حاشية) .
 - ٤ - رسالة الماجستير ص ٧٧ وما بعدها .
 - ٥ - انظر كتاب « الروضتين » ج ١ ق ١ ص ١٢٦ .

ليهنك ما افرج النصر عنه وما ناله الملك العادل^(١)
والمعروف أن لقب «العدل» هو لقب نور الدين ، في حين أن «الشهيد»
هو لقب عماد الدين .

ولعلّ الذي أدى إلى هذا الالتباس ، التصاق اسم الوزير جمال الدين ،
وهو محمد بن علي ابن أبي منصور الأصفهاني أبو جعفر - باسم عماد الدين
زنكي ، إذ أنه كان وزير الدولة الأتابكية بالموصل ، واتصل بعماد الدين
ووزر له ، وكاد ينفرد بالحكم في دولته . إلا أنه عُمّر بعد وفاة عماد الدين
عام ٥٤١ هـ ، وأصبح وزيراً لسيف الدين ولد عماد الدين بالموصل ، وعندما
توفي سيف الدين عام ٥٤٤ هـ ، وخلفه قطب الدين ، استمر جمال الدين
في الوزارة وبقي فيها إلى عام ٥٥٨ هـ ، وكانت وفاته عام ٥٥٩ هـ^(٢) .
ولا ريب أن صلة الوزير بآل زنكي - ونور الدين ، كما هو معروف ،
نجل مؤسس البيت الزنكي - وكذلك قرب الرها جغرافياً من الموصل ،
والارتباط السياسي بينهما - كل هذه تجعل اهتمام وزير الموصل باستعادة
الرّها ، ومن ثمّ تهنئة الشاعر له بهذه الاستعادة ، أمراً طبيعياً .

ويلحظ الدارس لهذه القصيدة ، اندماج الشاعر التام في الجماعة الإسلامية
حيث يقف معها في مواجهة الباطل الفرنجي :

أما آن أن يزهد الباطل وأن ينجز العدة الماثل
إلى كم يغبّ ملوك الضلال سيف بأعناقها كافل

١ - الروضتين ص ١٢٧ .

٢ - انظر حول الوزير جمال الدين : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ، الخريدة ،
قسم شعراء الشام ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ ، الكامل ج ١١ ص ٧٤ ، ٢٠٢-٢٠٥ ، مرآة
الزمان ج ٨ ص ٢٤٨ - ٢٥١ ، مفرج الكروب ج ١ ص ١٧ ، ١٤٦ ، مرآة الجنان ج ٣
ص ٣٤٢ - ٣٤٣ ، أخبار الحكماء ص ١٦٠ ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٦٥ ، شذرات
الذهب ج ٤ ص ١٨٥ ، زبدة الخلب ج ٢ ص ٢٩٦ .

واستهانة الشاعر بالخصم وازراؤه به بعد هذا النصر يتجليان في قوله :
فلا تحفلنّ بصول الذئب وقد زأر الأسد الباسل
ولعلّ المناسبة بما توحى من تفوق وغلبة هي التي جعلت الأبيات التالية
تنضح بالقوة وتعبّر عن الإيمان بها سبيلاً لتحقيق الغايات :

كذا ما انثنت قط صم الرماح أو يتثنى القنا الذابل
هو السيف ، إلا تكن حاملاً لبزته بزك الحامل
وهل يمنع الدين إلا فتي بصول انتقاماً فيستأصل
وغني عن البيان أن الروح الجهادية لا بد أن تكون بارزة في أبيات
القصيدة ، كما في آخر الأبيات الثلاثة السابقة . وفي قول الشاعر :

وجاهد في الله حق الجهاد محتسب بالعلى قافل
أما التطلع إلى استرداد القدس ومدن الساحل ، بعد كل نصر يحققه
ممدوح ابن القيسراني ، فيكاد يكون أمراً مقررّاً في كل قصيدة تهنئة بنصر .
نظمها الشاعر :

فإن يك فتوح الرّها لحة فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديار أن المقيم بها راحل
وتهكم ابن القيسراني برئيس الفرنجة « القمص » يذكر القاريء بأبيات
لأبي تمام والمنتبي ، تهكما فيها بقائد الروم . يقول ابن القيسراني في « القمص »
المنهزم :

أرى «القمص»^(١) يأمل فوت الرماح ولا بد أن يضرب الشسائل
يقوّي معاقله جاهداً وهل عاقل بعدها عاقل
وكيف بضبط بواقي الجهات لمن فات حسبته الحاصل

١ - هذه رواية صاحب الروضتين ج ١ ق ١٢٧ .

ويراوح ابن القيسراني بذلك ما بين موضوع القصيدة الأصلي ، وتقريظ الممدوح بما يتلاءم وشخصيته ومركزه في الدولة :

برأيك في الحرب أم لفظك استفاد أصابته النائل
وعن حد عزمك في المشكلات قضى فمضى الصارم الفاصل
والحديث عن قلم الوزير وضعه الشاعر في اطار الحرب وألفاظها :
ولم لا تحيط بآفاقها وفي يدك الصامت القائل
إذا ما علا الخمس في حومة ففارس بهمتها راجل^(١)

* * *

وفي سنة ٥٤٣ هـ ، تجمع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب ويغيروا عليها .
وعلم نور الدين بالأمر ، فقصدهم بعسكره . فالتقوا بغيرى ، واقتتلوا
قتالاً شديداً ، انجلى عن إنهزام الفرنج انهزاماً شنيعاً ، وقتل الكثير منهم ،
وأسر جماعة من مقدميهم ، ولم ينج منهم إلا الجمع القليل^(٢) . وفي هذه
الواقعة قال ابن القيسراني قصيدة أولها :

يا ليت أن الصّد مصدود أو لا فليت النوم مردود^(٣)

وبعد مقدمة غزليّة من أربعة أبيات ، يخرج فيها ابن القيسراني عن
عادته في الاستغناء عن المقدّمات الغزليّة في قصائد القتال ، يرسم لنا الشاعر
معالم صادقة لشخصية نور الدين ، بطل الموقعة . فيقدمه لنا ملكاً محبباً
لرعيته ، عادلاً ، مجاهداً شجاعاً ، مظفراً ، مهيباً تقيّاً :

وكيف لا نشي على عيشنا المحمود والسلطان محمود

١ - الحريرة ج ١ ص ١١١ .

٢ - انظر الكامل ج ١١ ص ٨٩ . الأتابكة : ص ١٦٤ - ١٦٥ . زبدة الحلب ج ٢

ص ٢٩٢ - ٢٩٣ . مفرج الكروب ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ .

٣ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٥ .

فليشكر الناس ظلال المنى إن رواق العز ممدود
ونيرات الملك وهاجة وطالع الدولة مسعود
وصارم الإسلام لا ينثني إلا وشلو الكفر مقلود
مناقب لم تكن موجودة إلا ونور الدين موجود
مظفر في درعه ضيغم عليه تاج الملك معقود
ترتشف الأفواه أسيافه إن رضاب العز مورود
وكم له من وقعة يومها عند ملوك الشرك مشهود
والقوم إما مرهق صرعة أو موثق بالقدّ مشلود
حتى إذا عادوا إلى مثلها قالت لهم هيبتة عودوا

وحين يزري ابن القيسراني بالافرنج في آخر الأبيات العشرين التي أوردها أبو شامة ، يستعين بمعلوماته القرآنية وبالمشاكلة اللفظية حيث يقول :

وإنما الافرنج من بغياها عادّ وقد عادّ لهم هود
قد حصحص الحق فما جاحد في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح وكل ثغر بك مسلود

ولن يغيب عن ذهن القارئ وهو يطالع أبيات القيسراني هذه ، أنها كانت تصويراً لشخصية البطل ، أكثر منها وصفاً محدداً لواقعة معينة .

* * *

وفي سنة ٥٤٤ هـ ، هزم نور الدين الفرنج هزيمة منكرة عند حصن «إنب» وكان ممن قتل ، صاحب أنطاكية ، فأكثر الشعراء في مدح نور الدين . وقد ذكر هذه الواقعة كل من ابن الأثير وابن العديم وابن واصل وابن القلانسي^(١) . وكان ابن القيسراني ممن مدحوا نور الدين في هذه المناسبة

١ - انظر الكامل ج-١١ ص ٩٥ ، الأتابكة ص ١٧٧ - ١٧٨ ، زبدة الخلب ج ٢ ص ٢٩٨ - ٣٠٠ ، مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٠ - ١٢٢ ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

وقد أورد ابن الأثير سبعة عشر بيتاً من القصيدة^(١) ، بينما أورد أبو شامة القصيدة كاملة ، بعد أن قدّم لها بهذه المقدمة الطويلة^(٢) :

« وفي صفر من السنة (٥٤٤ هـ) ، وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى ، والله الحمد ، من نصر على حشد الأفرنج المخذول ، ولم يفلت منهم إلا من خبّر ببوارهم ، وتعجيل دمارهم .

وذلك أن نور الدين ، اجتمع له من سائر العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسواد ، فنهض بهم إلى الأفرنج في الموضع المعروف بإنتب ، وهم في نحو أربعمئة فارس وألف راجل ، فقتلوهم وغنموهم ، ووجد اللعين البرنس ، مقدّمهم ، صريعاً بين حماته وأبطاله^(٣) ... وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس ، وقوة الحيل ، وعظم الحلقة ، مع اشتهاه الهيبة وكثرة السطوة والتناهي في الشر ، وذلك يوم الأربعاء ، الحادي والعشرين من صفر . ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية ، وقد خلت من حماتها والذابين عنها ، ولم يبق فيها غير أهلها ، مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم . وترددت المراسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم ، فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا أمر لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من الناصر لهم ، والمعين على من يقصدهم . وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال ، ثم استمهلوا فأمهلوا . ثم رتب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها والمنع لمن يصل إليها ، ونهض في باقي العسكر إلى ناحية أفامية لمنازلتها ومضايقتها ، فالتمسوا الأمان

١ - انظر الأتابكة ص ١٧٨ - ١٧٩ .

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٠ .

٣ - واسمه ريموند . انظر :

W. B. Stevenson: The Crusades in the East, Cambridge, 1907 p. 165 .

See also : H. A. R. Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades, London, 1932, p. 292 .

وأمنوا على أنفسهم ، وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول ، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية ، وقد انتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لانجاد من بها ، فاقتضت الحال مهادة من في أنطاكية وموادعتهم ، وتقرر أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية له ، وما قرب من أنطاكية لهم ، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم ، بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعقل ، وغيرها ، الغنائم الجمة» (١) .

أما ابن الأثير ، فإنه يورد الواقعة كما يلي : «سار نور الدين إلى حصن حارم ، وهو للفرنج ، فحصره وخرّب ريبضه ونهب سواده ، ثم رحل عنه إلى حصن «إنب» فحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن حصن «إنب» فلم يرحل . بل لقيهم وتصافّا الفريقان ، واقتتلوا وصبروا ، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حدائث سنة ، ما تعجب منه الناس . وانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج ، وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً . وفيمن قتل ، البرنس . صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج ، وذوي التقدم فيهم والمال... وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح . وقتل البرنس . وممن قال فيه ، القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها يحسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية» (٢) .

وقصيدة القيسراني هذه ، كما يوردها أبو شامة من أطول قصائده التي وصلتنا ، إذ تحتوي على اثنين وخمسين بيتاً أولها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب وذو المكارم لا ما قالت الكتب
ولا يملك القارئ وهو يستعرض أبيات القصيدة ، إلا أن يستذكر

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٠ - ١٥١ .

٢ - الأتابكة ص ١٧٧ - ١٧٨ .

قصيدة أبي تمام في فتح عمورية . التي يكاد الشاعر ينتسخ صورها ومعانيها
انتساحاً . فضلاً عن بحرهما وقافيتها . وإن كان قد مزج فيها صور أبي
تمام بصور أبي الطيب المتنبي التي تضمنتها قصيدته المشهورة في قلعة الحدث ،
والتي مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
فلا غرابة إذن أن نجد القصيدة حافلة بإيجادات الضخامة والفخامة والعنف
كما في قول الشاعر :

يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة	وثابت القلب والاحشاء تضطرب
أغرّت سيوفك بالأفرنج راجفة	فؤاد رومية الكبرى لها يحجب
قل للطغاة وإن صمّت مسامعها	قولا لصمّ القنا في ذكره أرب
ما يوم «إنتب» والأيام دائمة	من يوم « يغرا » بعيد لا ولا كتب

ومن نافلة القول . أن روحاً إسلامية دافقة قد تخللت القصيدة التي
تصف النصر الكبير :

غضبت للدين حتى لم يفتك رضا	وكان دين الهدى مرضاته الغضب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً	من الملوك . فتور الدين محتسب
كذلك من لم يوق الله مهجته	لا قى العدا والقنا في كفه قصب
إلا تكن أحد الأبدال في فلك التقوى	فلا نتمارى انك القطب

والإشادة بنور الدين ملكاً صالحاً تقيّاً مجاهداً شجاعاً ، يقابلها غمز حكام
المسلمين الآخرين ، الذين لا يقومون بما يقوم به نور الدين :

هذا . وهل كان في الإسلام مكرمة إلا شهدت وعبّاد الهوى غيب

ومع أن الشاعر ، وهو يتصور المعركة ، قد تحدث عن أدواتها وما يمكن
أن يكون قد وقع فيها من قتال ، إلا أنه مع ذلك ، لم يقدم لنا صورة معركة

محددة تختلف عن المعارك الأخرى ، لا سيما أن مبالغاته واحتفاله الزائد
بالألفاظ قد أضعفت سمة الواقعية في قصيدته ، اللهم إلا ما كان من ذكره
لقتل « البرنس » صاحب أنطاكية ، وإيراده اسم المعركة (انتب) :

فملكوا سلب « الابرنز » قاتله وهل له غير أنطاكية سلب ؟

وهنا يوغل الشاعر في التشفي بالمقتول والسخرية منه ، فيقول :

من للشقي بما لاقت فوارسه	وإن بسائرهما من تحته قتب
عجبت للصعدة السمرء مثمرة	برأسه ان إثمار القنا عجب
سما عليها سمو الماء أرهقه	أنبويه في صعود أصلها صيب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا	بدا لتعليها من نحره سرب

وابن القيسراني ، الذي شهد في فترة طويلة من حياته ضعف المسلمين
وموقف الدفاع الضعيف الذي وقفوه من الغزاة أولاً ، لن تفوته الآن ملاحظة
الصورة الحديدية الباعثة على الثقة والأمل :

كنا نعد حمى أطرافنا ظفرا	فملككك الظبا ما ليس تحتب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها	كأن تسليم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق	كما التوى بعد رأس الحية الذنب

وما دام العدو ينهزم أمام نور الدين على هذه الشاكلة ، فليتنهز الفرصة
لاستخلاص الأقصى ومدن الساحل :

فأنهض إلى المسجد الأقصى بندي لجب	يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجلك في تطهير ساحله	فانما أنت بحر لجة لجب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة	من الظبي عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعها	حتى أقمت وأنطاكية حطب

هكذا حاول الشاعر أن يسجل هذه الواقعة بشعره ، ومع أنه أعطى

بعض ملامح لها . إلا أنه سجل أكثر من ذلك ، مشاعر الإعجاب التي يكتسبها لسيدته نور الدين . وانفعالاته الخاصة ازاء الأحداث . وقد لا نلوم الشاعر لانتهاجه هذا النهج . ولكن جنوحه إلى المبالغة حول القصيدة إلى شعر فخر وحماسة . بدلاً من أن تكون وصفاً واقعياً لمناظر حقيقية . وطابع المبالغة المفرطة . يمكن تبيته في ختام القصيدة حيث ينوّه الشاعر بممدوحه في قوله :

أجريت من ثغر الاعناق أنفسها جزوي الجفون أمّراها بارح حصب
وما ركزت القنا الا ومنك على جسر الحديد هزبر غيله أشب
فأسعد بما نلت من كل صالحة يأوي إلى جنة المأوى لها حسب
إلا تكن أحد الابدال في فلك التقوى فلا نتمارى أنك القطب
فلو تناسب افلاك السماء بها لكان بينكما من عفة نسب
هذا، وهل كان في الإسلام مكرمة إلا شهدت وعبادُ الهوى غيب

* * *

ويورد أبو شامة قصيدة ثانية لابن القيسراني في نور الدين . ذكر أنه أنشده إياها بظاهر حلب . وقد كسر الافرنج على « يغرا » وهزمهم إلى حصن حارم . وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أولاً بهذا الموضع^(١) . وقد أورد أبو شامة هذه القصيدة في حوادث سنة ٥٤٣ هـ . ولا بد أن يكون قد وهم في ذلك . لأن الإشارة الصريحة في القصيدة إلى وقعة « إنسب » الآنفه الذكر . وإلى قتل « الابرنز » ورفع رأسه على سنان الرمح ، ترتبط كلها بأحداث سنة ٥٤٤ هـ وليس بوقعة « يغرا » التي حدثت سنة ٥٤٣ هـ .

والقصيدة التي يوردها أبو شامة تقع في تسعة عشر بيتاً وتبدأ بقول الشاعر :

تفي بضمانها البيض الحداد وتقضي دَيْنَهَا السمر الصعداد

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦ .

وتدرك ثأرها من كل باغ فوارس من عزائمها الجلال^(١)
وكلا البيتين يوحى بأن النصر الذي يتغنى به الشاعر جاء بعد هزيمة
تعرض لها ممدوحه من قبل .

وعلى الرغم من أن التركيز على شخص البطل ظاهر في غير ما بيت ،
إلا أننا نجد الشاعر في هذه القصيدة لم يغفل المجهود الجماعي لرجال الجيش
كما في البيت الثاني من البيتين السابقين ، وكما في قوله :

وجند كالصقور على صقور إذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا اخفوا مكيدتهم أخافوا وان أبدوا عدوتهم أبادوا

ولا ينسى ابن القيسراني — كما لم ينس المتنبي في القرن الرابع الهجري —
أن مجاهدة بطله لاعداء دولة الخلافة ، إنما هي نصره لتلك الدولة ، ينبغي
التنويه بها بقوة :

ونصرة دولة دافعت عنها وهل يخشى وأنت لها عماد

وأما الإشارة الصريحة إلى الواقعة وإلى الحدث الكبير الذي شهدته —
قتل «الابرنز» — صاحب أنطاكية ، فترد في قول الشاعر :

وان تملُ القوافي ما تلتنه بإنّب ما يؤنبها سناد
وللأبرنز فوق الرمح رأس توسد والسنان له وساد
ترجل للسلام ففترسوه وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نعاس وغائرها وليس به سهاد

والصورة التي تنقلها الأبيات السابقة للقائد الصليبي القليل ، فيها من
الشماتة والقسوة ما لا يحتاج إلى توضيح .

ولئن كانت المشاعر الجامحة التي تولدها الحروب والحديث عنها ، تدعو

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦ .

إلى الاندفاع والمبالغة في الوصف والقول ، فإن نظر ابن القيسراني الدائب كذلك إلى صور المتنبي المفرطة في الحموح في قصائده الحربية — كما سئري بالتفصيل في الفصل اللاحق — من العوامل التي تغري الشاعر بالغلو في تصورات ، كأن يقول :

أحطت بهم فكان القتل صبرا ولا طعن هناك ولا طراد
وهو قول يذكر بما قاله المتنبي في سيف الدولة الذي كان يقارع الروم في شمال الشام :

ألقن إليك دماء الروم طاعتها فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم^(١)
والشاعر في هذه القصيدة ينظر إلى المستقبل ، ومن خلال همة ممدوحه ، بأمل وثقة كبيرين :

فسر واستوعب الدنيا فتوحا فلا هضب هناك ولا وهاد
وزر ببني الوغى مثنوى حبيب فما عن باب مسلمة ذباد
ولا في باب فارس غير ثكلي بفارسها يضيء بها الحداد
لأنطاكية يحمي ذراها وقد دانت لسطوتك البلاد
وأذعنت الممالك واستجابت ملبسة لدعوتك العباد

* * *

ويورد صاحب « الخريدة » قصيدة من خمسة وأربعين بيتاً ، نظمها ابن القيسراني في مدح نور الدين عام ٥٤٤ هـ ، ويقدم لها بالأسطر التالية^(٢) :

وله — ابن القيسراني — في مدح الملك الغازي نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام سنة أربع وأربعين وخمسمائة قصيدة استحسنتها في فنّها سلاستها في نظمها ورويتها ووزنها ، فكأنّها عروس أبرزت من كنّها ،

١ — ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ط دار صادر بيروت ١٩٦٤ ج ٢ ص ٢٦٧ .

٢ — الخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ١١١ .

أو ديمة وطففت من مزنها ، أو روضة أنف في حسننها وهي :

أبدى السلو خديعةً لتلائم وحننا الضلوع على فؤاد هائم

ولم يورد صاحب « الروضتين » من هذه القصيدة إلا ثمانية أبيات^(١) ، في حين أورد ياقوت في معجم الأدباء أربعة أبيات منها فقط^(٢) ، وكان من الممكن إغفال هذه القصيدة ، باعتبارها قصيدة مدح ، لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالحروب الصليبية . غير أنها احتوت على أبيات ترسم معالم شخصية نور الدين ، بوصفه أعظم مجاهد للصليبيين في زمنه ، ولذا فإن إيرادها على هذا الأساس ، لا يبدو خارجاً عن مادة هذا البحث .

ولن يفوت القارئ لهذه القصيدة ، أنها خلافاً لقصائد ابن القيسراني الحربية المحضة ، تبدأ بمقدمة غزلية طويلة ، تستوعب ثلاثة عشر بيتاً . يعتمد الشاعر بعدها إلى أن يتخلص بحذق من الغزل إلى المديح ، وذلك حين يقول في البيتين الثالث عشر والرابع عشر :

يا أيها المغربي بأخبار الهوى لا تخدعنّ عن الخير العالم
اسأل فديتك بالصباية لمي واسأل بنور الدين صدر الصارم^(٣)

وتضم القصيدة في أبيات متتابعة ، عدداً من فضائل الحرب المنسوبة إلى نور الدين ، مثل إلفته بالقسى والرماح والخيل والسيوف ، وتحليه بالشجاعة والحزم :

ومعطفات ترنمي بأجّة ومثقفات تهتدي بلهازم
ومسومات لست تلدر في الوغى بقوائم يدركن أم بقوادم
كل ابن سابقة إذا ابتدر المدى فلغير غرته يمين اللاطم

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٩ .

٢ - معجم الأدباء مطبوعات دار المأمون ، مصر ج ١٩ ص ٧٩ .

٣ - الحريدة ج ١ ص ١١٢ .

يرمي بفارسه أمام طريده حتى يرى المهزوم خلف الهازم
ينحى إلى ملك إذا قسم الندى والبأس ، كان المكتني بالقاسم
متسربل بالخزم ساعة تلتقي حلق البطان على جواد الخازم
ما بين منقطع الرقاب وسيفه إلا اتصال يمينه بالقاسم^(١)

ويعاود ابن القيسراني في هذه القصيدة مقارنة حال البلاد زمن نور الدين ،
بحالها في عهد المفرطين من حكام المسلمين :

سام الشام وبالحا من صفقة لولاه ما أعيت على يد سأم
ولشمّرت عنها الثغور وأصبحت فيها العواصم وهي غير عواصم
تلك التي جمحت على من راضها ودعوت فانقادت بغير شكائم

والبلاد التي يحكمها نور الدين ، بلاد ثغور ، تتعرض أبدأ للغزو ،
فمن الخزم إذن أن يحرص على تحصينها في وجه العدو المتربص :

حصن بلادك هيبة لا رهبة فالدرع من عدد الشجاع الخازم
وارم الأعادي بالعوادي إنها كفلت بغلّ قديمهم والقادم

ولا يحتاج القاريء إلى كبير عناء ، لكي يربط ما بين هذين البيتين
وبين قول المتنبي في خيل سيف الدولة المسربة بالدروع :

لها في الوغى زيّ الفوارس فوقها فكلّ حصان دارع متلثم
وما ذاك ضناً بالنفوس على الردى ولكن دفع الشر بالشر أحزم^(٢)

وعلى الرغم من عزوف ابن القيسراني عن مذهب الشيعة ، فإنه ينساق في
غمرة حماسه لأُميره إلى ربط شخصية نور الدين بشخصية مهدي الشيعة
المنتظر :

١ - الحريدة ج ١ ص ١١٢ - ١١٣ .

٢ - ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ، دار صادر ج ٢ ص ٨٠ .

وأظن أن الناس لما لم يسروا عدلاً كعدلك أرففوا بالقائم
والقائم المشار إليه ، هو المهدي المنتظر ، الإمام أبو القاسم الذي ولد
سنة ٢٥٦ هـ ، وتغيّب سنة ٢٦٥ هـ ، ويعبرون عنه بصاحب العصر وقائم
الزمان^(١) :

* * *

ومما يرتبط ارتباطاً حقيقياً بالمعركة ضد الصليبيين ، المحاولات المتكررة
التي قام بها عماد الدين زنكي ، ثم ولده نور الدين ، لضم دمشق إلى حلب ،
ومن ثم ، توحيد الإمارات الشامية الإسلامية ، في ظل دولة زنكية موحدة
تقف متماسكة بقوة في وجه الصليبيين .

من أجل ذلك . نرى أن الشعر المرتبط بمحاولات التوحيد هذه ، يتصل
اتصالاً حقيقياً بأحداث الحروب الصليبية . ومن هذا الشعر قصيدة لابن القيسراني
في عشرين بيتاً ، قيلت بعيد صلح تمّ بين نور الدين وحكام دمشق عام ٥٤٤ هـ ،
بعد أن حاصر نور الدين المدينة فترة من الوقت . وحديث هذا الحصار ،
وما عقبه من صلح أورده ابن القلانسي^(٢) وسبط ابن الجوزي^(٣) وأبو شامة^(٤) .

ويذكر ابن القلانسي في « ذيل تاريخ دمشق » أن نور الدين قد بلغه
افساد الفرنج في الأعمال الخورانية بالنهب والسلب ، فعزم على التأهب
لقصدهم . وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد ، ويستدعي
المعونة على ذلك بألف فارس . وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا
يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين . فاحتجّ عليه وغولط .
وعلى أثر ذلك ، توجه نحو دمشق ، وكان حكامها قد راسلوا الافرنج بخبره

-
- ١ - انظر حاشية الخريدة ج ١ ص ١١٤ .
 - ٢ - انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ - ٣١٠ .
 - ٣ - انظر مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٠٦ .
 - ٤ - انظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

وقرّروا معهم الانجاد عليه ، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزّة ، ووصلت أوائلهم إلى بانياس . وعرف نور الدين خبرهم ، فلم يحفل بهم وقال : لا أنحرف عن جهادهم ، وهو مع ذلك كافّ أيدي أصحابه عن العبث والافساد في الضياع ، وأمر باحسان الرأي في الفلاحين ، والتخفيف عنهم ، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها ، وسائر البلاد وأطرافها . وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطة ، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر . فلما وصل نور الدين إلى بعلبك ، اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة (عام ٥٤٤ هـ) . وأقام إلى مثله ، فروى الآكام والوهاد ، وجرت الأودية ، وزادت الأنهار وامتلأت برك حوران ، ودارت أرحيتها . وعاد ما صوّح من النبات والزرع غضاً طرياً ، وجدّ الناس بالدعاء لنور الدين ، وقالوا هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته .. ثم أرسل نور الدين إلى مجير الدين صاحب دمشق وإلى وزيره يقول : انني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكايبة المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أمواهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج ، وعدم الناصر لهم . ولا يسعني . مع ما أعطاني الله . وله الحمد ، من الاقتدار على نصره المسلمين وجهاد المشركين . وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها . و التقتير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالافرنج على محاربتني ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعيّة . ظلماً لهم وتعدّياً عليهم . وهذا ما لا يُؤضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين . ولا بدّ من المعونة بألف فارس مُزاحي العلة ، تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين ، لتخليص ثغر عسقلان وغزّة ..

فكان الجواب عن هذه الرسالة : ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك ان قصادتنا ونزلت إلينا . فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه ، أكثر التعجب منه والإنكار له ، وعزم على

الزحف إلى البلد ومحاربتة في غد ذلك اليوم ، فأرسل الله من الأمطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك ...

وفي مستهلّ المحرم (من عام ٥٤٥ هـ) ، تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق . والسبب في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها ، بعدما اتصل به من أخبار دعتة إلى ذلك . واتفق أنهم بذلوا له الطاعة واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان ، وكذا السكّة ووقعت الأيمان على ذلك^(١) ...

في هذا الصلح نظم ابن القيسراني قصيدة يهنئ فيها نور الدين ابتدأها بقوله :

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح وإن شئت صلحاً عدّ من حزمك الصلح^(٢)

وقد عرض الشاعر النتيجة التي تمخّض عنها خصام الحاكّمين المسلمين عرض مُحبّذٍ مستحسنٍ للصلح والوفاق :

وهل أنت إلا السيف في كل حالة فطوراً له حدّ وطوراً له صَفْحُ
وما كان كفّ العزم إلا إشارة إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح
وقد علم الأعداء مذبت جانحا إلى السلم ما تنوي بذاك وماتنحو

. . .

صبرت فكان الصبر خير مغبّة فسبق إليك الملك يسعى به النجاح

ولا يترك الشاعر شكاً في نفس القارئ في أنه كان يدرك بوضوح أن وحدة الصف تعني نهاية العدو الطارئ على البلاد ، فهو يخبرنا بصراحة

١ - ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ - ٣١٠ . وقد اقتبس أبو شامة حديث ابن القلانسي في «الروضتين» ج ١ ق ١٧٧ - ١٧٩ .

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١٨٠ .

ووضوح ، ان اتحاد جنوب الشام ممثلاً في دمشق ، مع شماله ممثلاً في حلب ، معناه الفناء لمغتصبي بيت المقدس :

إذا ما دمشق ملكتك قيادها	تيقن من في « إيليا » ^(١) أنه الذبح
متى التفّ نفع الجحفلين على الهدى	فلا مهمّة يحوي الضلال ولا سفح
إذا سار نور الدين في الجيش غازياً	فقولاً ليل الإفك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها	فلا زالت الشكوى ، ولا اندمل الجرح

وربما كانت وحدة دمشق وحلب ، تعني بالنسبة إلى القيسراني شيئاً يتصل بمشاعره الشخصية ، فوق أنها لمصلحة الأمة ، وذلك لأن حياته بعد جلّائه عن قيسارية قد توزعت ما بين دمشق وحلب ، مما جعل لكلتا المدينتين في نفسه مكانة خاصة .

وإذا كان نور الدين يمثل التجسيد الحيّ للآمال الإسلامية في تلك الفترة ، فلا غرو أن يركّز الشاعر على شخصه في كل قصيدة تروي عملاً من أعماله وتمجّده :

بدولتك الغراء أصبح ضدها	بهيما ولولا الحسن ما عرف القبح
وكم من قريح القلب لو بات واردا	موارد هذا العدل ما مسّه قرح
بك ابتهج الألباب وانتهج الحجا	وأثمرت الآداب واطرّد المدح
ولاذت بك التقوى وعاذت بك العلا	ودانت لك الدنيا وعزّ بك السرح
فلا قلب إلا قد تملكته هوى	ولا صدر إلا قد جلاه لك النصيح

* * *

وفي أحداث عام ٥٤٥ هـ ، يورد ابن القلانسي^(٢) وابن الأثير^(٣) وسبط

١ - إيليا : القدس .

٢ - ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠

٣ - الكامل ج ١١ ص ١٠١ - ١٠٢ ، الأتابكة ص ١٨٢ - ١٨٤ .

ابن الجوزي^(١) وابن واصل^(٢) وأبو شامة^(٣) وياقوت^(٤) أنباء انتصارات كبيرة أحرزها نور الدين بعد أسر الأمير الصليبي «جوسلين» ، صاحب القلاع الواقعة شمالي حلب . ويذكر أبو شامة أن نور الدين سار إلى بلاد جوسلين . وهي القلاع التي شمالي حلب ، منها تل باشر وعين تاب ، وعزاز وغيرها من الحصون فجمع «جوسلين» الفرنج ، فارسهم وراجلهم ، ولقوا نور الدين ، وكانت بينهم حرب شديدة ، انجحت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج ، وأخذ «جوسلين» سلاح دار (حامل سلاح الأمير) كان لنور الدين أسيراً ، وأخذ ما معه من السلاح ، فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قيلج أرسلان السلجوقي صاحب «قونية» . وكان نور الدين قد تزوج ابنته . وأرسل مع السلاح إليه يقول : «قد أنفذت إليك بسلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره» . فعظمت هذه الحادثة على نور الدين ، وأعمل الحيلة على «جوسلين» وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصدته ، جمع «جوسلين» الفرنج وحذر وامتنع^(٥) . ثم يتحدث أبو شامة عن اتفاق ما بين نور الدين وجماعة من التركمان على أسر «جوسلين» انتهى بالفعل إلى وقوع «جوسلين» في أيدي التركمان . ومن ثم في يد نور الدين . ويصف أبو شامة أسره بأنه من أعظم الفتوح على المسلمين «فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه ، وشدة عداوته لأملة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها . وأصيبت النصرانية كافة بأسره . وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميتها ، وثغورهم من حافظها .

١ - مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٠٢ - ٢٠٦ .

٢ - مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

٣ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

٤ - معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦٥ .

٥ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

وسهل أمرهم على المسلمين بعده . وكان كثير الغدر والمكر ، لا يقف على يمين ، ولا يفي بعهده ... فلما أسر ، فتح كثير من بلادهم وقلاعهم ، فمنها عين تاب وعزاز ، وقورس ، والراوندان ، وحصن البارة ، وتل خالد ، وكفر لاثا ، وكفر سود وحصن بسر قوث بجبل بني عليم ، ودلوك ومرعش ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص ... وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا ، منهم القيسراني ، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق ، واستقرار أمرها ، ويذكر قتل « البرنز » وأسر جوسلين وأخذ بلاده ^(١) .

ويورد أبو شامة بعد ذلك قصيدة ابن القيسراني في واحد وخمسين بيتاً ، استوعبت ، كما يبدو ، جميع أبيات القصيدة ^(٢) ، في حين أورد ياقوت في معجم الأدباء تسعة وثلاثين بيتاً منها ^(٣) ، وأورد العماد الأصفهاني في « الخريدة » أربعة وعشرين بيتاً ^(٤) .

وتبدأ القصيدة بقول الشاعر :

دعا ما ادعى من غرة النهي والأمر فما الملك إلا ما حباك به القهر
والمطلع ، كما هو واضح ، يوحي بشعور التفوق ، والإيمان بالقوة سبيلاً إلى احتياز البلدان وتملكها .

ولا تروي القصيدة قصة معركة واحدة ، بل هي ، كما قال أبو شامة في المقدمة لها ، في مدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق ، واستقرار أمرها ، وتحتوي ذكر قتل « البرنز » (صاحب أنطاكية) وأسر جوسلين وأخذ بلاده . ومعنى ذلك أنها استعراض لمجموعة من انتصارات نور الدين . فبعد أن يقدم الشاعر لقصيدته بمقدمة من أربعة أبيات ، جمعت ما بين النهج

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٣ - ١٨٥ .

٢ - المصدر نفسه ص ١٨٥ - ١٨٨ .

٣ - معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦٥ - ٧٠ .

٤ - الخريدة ج ١ ص ١٥٧ - ١٥٩ .

الحكمي المرتبط فحوىً بطروف القصيدة وموضوعها ، وما توجيه تلك الظروف من شعور بالمنعة والقوة ، ينتقل إلى الثناء على بطله نور الدين .
منطلقاً من موقفه من دمشق ، التي اعترفت بتبعية لها . وموقف الأعزاز للمدينة التي قضى الشاعر فيها فترة طويلة من حياته ، يستبين بصورة واضحة من خلال ثلاثة عشر بيتاً متلاحقة ، ساقها ابن القيسراني في دمشق وعلاقة نور الدين الجديدة بها :

ليهن دمشقاً أن كرسى ملكها	حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنتك نور الدين مذ زرت أرضها	سمت بك حتى الخطّ عن نسرهما النسر
خطبت ، فلم يحجبك عنها وليّها	وخطب العلا بالسيف مادونه ستر
جلاها لك الإقبال حورية السنا	عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب ، أكنّت من هواك محبة	نمت . فانتمت جهراً ، وسراً الهوى جهر
فسقت إليها الأمن والعدل نخلة	فأمست ولا أسر تخاف ولا إصر
فإن صافحت يملك من بعد هجرها	فأحلى التلاقي ما تقدمه هجر
وهل هي إلا كالحصان تمنعت	دلالاً ، وإن عزّ الحيا وغلا المهر
ولكن إذا ما قستها بصدادها	فليس له قدر وليس لها قدير
هي الثغر ، أمسى بالكراديس عابساً	وأصبح عن باب الفراديس يفتّر
على أنها لو لم تجبك إنابة	لأرهمها من بأسك الخوف والذعر
فأما وقفت الخيل ناقعة الصدى	على بردي من فوقها الورق النضر
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى	وأصدرتها والبيض من علق حمر

وينتقل الشاعر بعد الحديث عن دمشق إلى نصر سابق كبير كان نور الدين قد أحرزه في وقعة « إنسب » على صاحب أنطاكية وهو النصر الذي سبقت الإشارة إليه والذي انجلى عن قتل صاحب أنطاكية :

فلا ينتحل من بعدهما الفخر دائل	فمن بارز «الابرز» كان له الفخر
ومن يز «أنطاكية» من مليكها	أطاعته ألحاظ المؤللة الخُرُر

وبعد أن يعالج ابن القيسراني وقعة « انتب » تلك ، وما تمخضت عنه
في تسعة أبيات ، ينتقل إلى آخر الأحداث العسكرية : أسر « القمص جوسلين » :

كما أهدت الأقدار للقمص أسره	وأسعد قرن من حواه لك الأسر
طغى وبغى عدواً على غُلّوائه	فأوبقه الكفران : عدواه والكفر
وألقت بأيديها إليك حصونه	ولو لم تجيء طوعاً بلجاء بها القسر
وأمت عزاز كاسمها بك عزّة	تشق على النسرين لو أنها الوكر

وكما عودنا ابن القيسراني ، فإن كل نصر كان يحوزه ممدوحه ، كان
حافزاً لنداء بوجهه الشاعر إلى الممدوح لاستخلاص القدس وساحل الشام
المحتلّ :

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة	فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فسر
كأنني بهذا العزم ، لا فلّ حسده	وأقصاه بالآقصى وقد قضي الأمر
وقد أصبح القدس المقدس طاهرا	وليس سوى جاري الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها	فلا عهدة في عتق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبي صوارم	مساجدها شفع وساجدها وتر
وان يتيمم ساحل البحر مالكا	فلا عجب أن يملك الساحل البحر

ولا عجب كذلك ، بعد التغني بهذه الأعجاد التي حققها نور الدين ،
أن يركّز الشاعر مديحه الدافق على شخصيّة نور الدين ، فيبرز مزايا البطل
من جميع النواحي . وهو إذ يقول فيه :

ولو لم يسر في عسكر من جنوده لكان له في نفسه عسكر مجر
فإنه يكاد يردد قول أبي تمام في المعتصم :

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل حلب^(١)

١ - ديوان أبي تمام تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ ج ١ ص ٥٩ .

وإذ يضع الشاعر ممدوحه في هالة اسلامية مشرقة ، بعد هذه الانتصارات ، فإنه كان يعبر عن شعور المسلمين عامة :

ملك " سمت شَمّ المنابر باسمه كما زهيت تيتها به الأنجم الزهر
فيا كعبة ما زال في عرصاتها مواسم حج لا يروعها النفر
خلعت على الأيام من حلل العلا ملابس من أعلامها الحمد والشكر

ومن السهل أن تجرّ المفاضلة ما بين حاكم وحاكم ، إلى المفاضلة ما بين بلد وبلد :

وتوجّعت ثغر الشام منك جلالة تمنّت لها بغداد لو أنها ثغر
فلا تفتخر مصر علينا بنيلها فيمناك نيل كل مصر بها مصر

وشتان ما بين عهد نور الدين الخافل بالجهاد ، الخاضد لشوكة الصليبيين ، وبين عهد سابق كان الصليبيون فيه موضع خشية ورهبة :

رددت الجهاد الصعب سهلاً سبيله ويا ظالماً أمسى ومسلكه وعر
وأطمعت في الافرنج من كان بأسه تخوف أن يعتاده منهم فكر
وأقحمت جرد الخيل أعلى حصونها ولولاك لم يهجم على كافر كفر

ويحاول ابن القيسراني في ختام قصيدته ، أن ينوّه بشعره ، كما كان يفعل المتنبي في العديد من قصائده الطنانة ، فهذا هو يقول :

ومن يدعي في قتلك الشرك شركة إذا لم يكن عند القوافي له ذكر
هي القائنات الحافظات فروجها فشاهدها عدل ورائقها سحر
ولو لم يكن في فضلها وكمالها سوى أنها من بعد عمر الفتي عمر

ومن الإنصاف لابن القيسراني ، أن نذكر هنا أن الرجل لم يتعرض في قصيدته ، تصريحاً أو تلميحاً ، لطلب عطاء ، بل كان انساناً مسلماً ، يعبر تعبيراً صادقاً عن أحاسيسه وأحاسيس المسلمين عامة .

وفي نطاق حوادث سنة ٥٤٥ هـ ، أورد أبو شامة في «الروضتين» قصيدة أخرى من تسعة وثلاثين بيتاً لابن القيسراني ، اكتفى في تقديمه لها بهذه العبارة القصيرة :

«وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أولها ...»^(١) وإذ نقرأ القصيدة ، نحس أنها قصيدة مدح لنور الدين ، عرّج فيها الشاعر على وقائعه المختلفة ، وليست قصيدة حربيّة عرّج فيها الشاعر على مناقب ممدوحه . ولعلّ طابع المدح الغالب عليها ، يفسر هذه المقدمة الغزلية للقصيدة ، بما تحمل من حين وذكريات عاطفية رقيقة :

أما وخیال زار ممّن أحبه	لقد هاج من ذكراه ما لا أغبه
إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا	ذكرت نسيماً بالثغور مهبّه
فيا نفحات الشام رفقا بمهجة	يحمي عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن الصبّ أين فؤاده	فإن فؤاد المرء مع من يحبه

وقد تكون مقدمة الحنين والاستذكار هذه ، متناسقة نفسياً مع استذكار الشاعر لوقائع سابقة لنور الدين ، إذ أن الاستذكار في الحالتين ، ينتقل بالذهن إلى أحداث وأماكن وأشخاص كانت مبعث رضا لنفس الشاعر .

وحين يتخلّص ابن القيسراني بحذق مخطط من الغزل إلى المدح ، يجمع في أبيات متلاحقة مآثر نور الدين الكبرى ، وذلك حين يقول في التنويه بكرم ممدوحه وشجاعته وتقواه :

تولّد بين الغيث والليث والتقى	منافسه ، أي الثلاثة تيربّه ؟
بعد مضاء في الظبا . لا وضربه	بها قلل الأعداء ما السيف ضربه
مكين الحجا أرضى الزمان بنفسه	إلى الآن حتّى لان وانقاد صعبه
حمى قبة الإسلام بالخيّل فاغتدت	وأوتادها جرد الطعان وقبه

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٨ .

ومن ثمّ ينتقل إلى تعداد وقائع نور الدين في الرّها وصرخد والعريمة
وعلى نهر العاصي ، وإنّاب ، حيث قتل صاحب أنطاكية الصليبي . ثمّ
إلى أسير القمص (جوسلين) ، وافتتاح عزاز وتلّ باشر .
وكأنّ الشاعر ، وقد عدّد كل هذه الانتصارات ، قد استمدّد الحافز
القوي لأن يهتف قائلاً :

فقل للملوك الخافقين نصيحة كذا عن طريق الليث يزأر غلبه
وخلّوا عن الآفاق فالشرق شرقة بحكم الردينيات والغرب غربه !
وبلاء نور الدين في الدفع عن بلاد الشام ، إنّما هو امتداد لبلاء أبيه
عماد الدين في استرداد أرض الشام من العدو :
أبوك استرد الشام بالسيف عنوة وللروم بأس طالما غال خطبه
ونور الدين لا يقاتل من أجل متاع دنيوي زائل ، وإنّما يذب عن دين
الله ، لأنّه من حزب الله :

إذا ذبّ عن أضغاث ذبائهم مالك فأنت الذي عن حوزة الدين ذبّه
رأيت اتباع الحق خيرا مغبّة فأفرجت عن رأي يسرك غبّه
وأوضحت ما بين الفريقين سنّة بها عرف المربوب من هو ربه
وبيّنت ما قد كان من كان يبتغي دليلا بأن الله من أنت حزبه

* * *

وفي حوادث سنة ٥٤٦ هـ ، أورد ابن القلانسي وسبط ابن الجوزي
وأبو شامة حديث حصار آخر فرضه نور الدين على دمشق . وموجز الحديث
أن نور الدين حاصر دمشق لمعاوضة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم ، فترل
عسكر نور الدين في عاشر المحرم على ضواحي المدينة ، فانبثّت أيدي المفسدين
من العسكر الدمشقي في زروع الناس ، فحصدوها ، وتحركّ السعر ، وانقطعت
السابلة ، ووافت رسل نور الدين إلى ولاية البلد ، ونقلت عنه قوله : « أنا

ما أوتر إلاّ اصلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين وخلاص من في أيديهم من الأسارى . فإن ظهرت معي في عسكر دمشق وتعاقدنا على الجهاد ، فذلك المراد»^(١) .

فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه . ومن ثمّ واصل حصار المدينة ، ولم يزحف إليها اشفاقاً من قتل الناس . ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لانجاد دمشق ، فضاقت صدور أهل الصلاح ، وزاد انكارهم لمثل هذه الأحوال . وتواصل الارجاج بقرب عساكر الافرنج من البلد ، فحرك نور الدين من عسكره فريقاً ليكونوا في أعمال حوران مع العرب للتصدي للافرنج ولقائهم . وفي ثالث ربيع الأول دخل خلق كثير من الافرنج إلى البلد لقضاء حوائجهم ، وخرج مجير الدين صاحب دمشق ووزيره مؤيد الدين المسيّب بن الصوفي عندئذ في خواصهما وجماعة من الرعيّة ، واجتمعوا بملكهم وخواصه ، واتفقوا على نزول العسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله ، ولكنهم عادوا خاسرين ، فانكفأ عسكر الافرنج ، وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يطلبون منهما بقية المال الذي كان حكام دمشق قد وعدوهم به مقابل ترحيل نور الدين عن المدينة ! وعاد نور الدين إلى محاصرة دمشق ، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحف ولا شدّة في محاربة ، تخرجاً من قتل المسلمين ، وقال : لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً ، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين»^(٢)

ثم ترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق ، وتقارب الأمر في ذلك ، إلى أن استقرت الحال على قبول الشروط المقترحة في عاشر ربيع الآخر...؛ وفي ثاني عشر رجب . توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه ، ووصل إليها ، ودخل على نور الدين ، فأكرمه وبالغ في الفعل

١ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٠ .

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٣ .

الجميل في حقه ، وقرّر معه تقارير اقترحها عليه ، بعد أن بذل له الطاعة وحسن النياحة عنه في دمشق ، ورجع إلى دمشق مسروراً سادس شعبان «^(١) .

هذه هي القصة الموجزة لحصار دمشق سنة ٥٤٦ هـ . وفي الصلح الذي تمّ بين نور الدين ومجير الدين ، وقدم الأخير إلى حلب مصالماً مهادناً ، نظم ابن القيسراني قصيدة في واحد وعشرين بيتاً بدأها بقوله موجهاً الخطاب إلى نور الدين :

وفت لك الدنيا بميعادها باذلة أفلاذ أكبادها^(٢)

والقصيدة يغلب عليها طابع المديح ، وقد اتخذ مجيء مجير الدين إلى حلب منطلقاً للمدح نور الدين :

وأوفدت غُمرَ سلاطينها عليك في همة أنجادها
تبخي سناء أقصدت قصده طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعند أعمارها يوم التلاقي يوم ميلادها

والقصيدة وثيقة تاريخية ، تثبت توجه مجير الدين إلى حلب ، والطابع التصالحي فيها واضح لا يخفى ، إذ لا تتضمن القصيدة شعوراً بالمرارة والعداء نحو مجير الدين ، بل ان الحديث عنه لا يخلو من مسحة مودّة :

شامت دمشق بك برق العلا فأرسلت أصدق روادها
رأتك نور الدين نار الهدى قد أشرق الأفق بإيقادها
فيممت منك حيا مزنة بيض الأيادي ورد ورادها
فاسأل مجير الدين عن خبره أوردتها محمود إيرادها

والشاعر يرى في المصالحة بين دمشق وحلب ، عزّاً لدمشق لا ذلاً لها

١ - ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٧ . كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٨ .

٢ - كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٨ .

وخضوعاً ، ولذا فهو يصوّره انضواءً في دولة صالحة تجتذب إليها الناس
ويتحول المعادي لها إلى صديق موالٍ :

تبوّأت من عزّها قبة سمر القنا أطناب أوتادها
تنافس الناس على دولة فتّ بها أعين حسّادها
يغدو المعادي كالموالي لها فوالها ان شئت أو عادها

أما بقية القصيدة ، فاشادة بنور الدين التقي الشجاع ذي الهمة العالية :

لك المساعي الغرّ يا جامعاً من طرفيها بين اضدادها
يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزهد زهادها
فأنت نسكا غيث أبدالها وأنت فتكا ليث آسادها
في أمة أنت حمى دينها حيناً وحيناً شمس عبّادها

وفي البيت التالي من أبيات القصيدة الأخيرة ، إشارة لا تخفى إلى
إبطال نور الدين لبعض عادات الشيعة في حلب ، مما سبقت الإشارة إليه
في الصفحات الماضية :

هذا ، وكم من سنّة بدعة أعدمتها من بعد إيجادها